

د/ بن عامر زين الدين

الحزام وما تحته الحزام

رواية

الملاحر
للطباعة والنشر والتوزيع

الحزام..

وما تحت الحزام

د/ بن عامر زين الدين

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

عنوان الكتاب: الحزام وما تحت الحزام

المؤلف: د/ بن عامر زين الدين



شارع الثورة، العلة ولاية سطيف

البريد الإلكتروني: dar.elmaher@outlook.fr

الهاتف الثابت: 036483685

النقال : 0795670044

واتساب: 00213795670044

ISBN : 978-9969-514-65-0

D.L : 12-2023

قال تعالى

"وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ."

سورة التوبة: الآية 105.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"أنصر أخاك ظالماً أو مظلوما..."

وقال رسول الله صلى الله على وسلم

"المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في

حاجة أخيه كان الله في حاجته..."

إهداء

إلى الذين لا أعرف أسمائهم ولا صورهم من مسلمي الأويغور..
هذه الرواية روايتكم وكُتبت كلماتها لأجلكم.. لأنني جزء من ذلك
الجسد الذي تداعى بالسهر والحى لما أصابكم.

إلى المقيمين في معسكرات إعادة التأهيل جبرا.. إلى الأحياء من
أصحاب الأخدود.

إلى الذين حُرموا الوطن والولد وحُرموا الحياة.. وحرّموا البكاء
أيضا.. فالبكاء دون ترخيص في شينجيانغ ممنوع.

إلى الذين تركوا الصلاة في عيد كاه واختير لهم بدلا عنها
الرقص في ساحاته عنوة.

إلى صاحب ذلك الأئين الخافت.. اعذرني أنا لا أستطيع
نصرتك ولا تضميد جراحك.. لكنني أحاول أن أجعل أئينك
مسموع.

إلى الذين استيئسوا من فرط ما استحكم التنين ومن فرط ما
زُلزلوا.. انتظروا نصر الله.. إن نصر الله قريب.

قد يبدو لك أيها القارئ أن المَشاهد من
نسج الخيال أو ربما خيالية بشكل
مفرط.. ولكن ليتمها كذلك.

المشهد الأول

صدمة الخطوات الأولى داخل المستنقع.

في يوم ربيعي مشمس استيقظ تامر باكرا على غير عادته، هو يحب أن يتعرف على المكان الذي يصل إليه سريعا وقد تأخر في التعرف على مدينة توربان.. فمند وصوله إليها اعتُقل لأكثر من مرة وفي أكثر من مكان، آخرها كان داخل الفندق.

كانت الشرطة تحاول معرفة سبب قدوم هذا المواطن السعودي إلى إقليم شينجيانغ الذي يتحاشى الوصول إليه حتى المواطنين الصينيين أنفسهم.. ولتأمر أكثر من سبب للمجيء إلى هذا الإقليم.

حمل حقيبته على ظهره وأخفى هاتفه بإحكام وسط حزامه الجلدي فهو يريد أن يلتقط به بعض الصور في الوقت المناسب ويخشى أن يسحب منه كما سحبت كاميرته.

المكان يبدو غريبا.. نظرات عمال الفندق كانت مربية والشرطة لم تحسن معاملته إلا أن شغفه بالسياحة كان يدفعه بقوة

قدما، هو يحب الوصول إلى الأماكن التي يراها الآخرون مخيفة أو خطيرة فرغبته السياحية متطرفة إلى حدٍّ ما.. وهو على هذا الحال منذ سنين، وله أمٌّ تملك الكثير من المال.

لكن ليس ذلك كله هو الذي جعله يستيقظ باكرا في مثل ذلك اليوم، ربما هو يبحث عن فريسة ما؟ فقد وصل إلى الفندق في وقت متأخر لذلك لم تكن ليلته الأولى حاملة كما كانت تكون عليه عادة عندما يُقيم في الفنادق ذات الخمس نجوم.

هو لا يريد أن تكون ليلته الثانية في هذه المدينة غير مسليّة وغير مليئة بما جاء لأجله، بل يريد أن يمضي وقتا أطول لإشباع غرائزه بعيدا عن مكة التي لم ينتهك فيها تامر محارم الله.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يزور فيها تامر الصين فقد زار أغلب أقاليمها.. لكنه يزور إقليم شينجيانغ للمرة الأولى.. واختار التوجه برا صوب مدينة توربان قادما إلّهما من العاصمة بيكين بدل التوجه جوا نحو عاصمة الإقليم أورومتشي لإتمام مهمة طلبتها منه أمه ولحاجة ما في نفسه.

توغل كثيرا ذلك الصباح في الأحياء الشعبية لمدينة توربان بعيدا عن الفندق الذي يقيم فيه وبعيدا عن الشوارع الكبيرة والبنائات الضخمة التي يملأها الشك.. بقدر ما رُصِّعت بالكاميرات في منطقة تعد الأكثر مراقبة في العالم.

سار طويلا في الأزقة الضيقة دون أن ينتبه إلى أنه ابتعد كثيرا عن الفندق فقد سحرته مناظر بيوت الطين المرتفعة والملاصقة لبعضها البعض حيناً والمتباعدة حيناً آخر.

ألوان البيوت لم تكن زاهية لكن تامر كان يرى جمالها في بساطتها وبساطة تصاميمها، فلبناتها مُشكلة من الطين والتبن والحصى.. وجدرانها مطلية بطبقات من الجير.. وأسقفها من الجريد وجذوع الأشجار.. ونوافذها أقواس من الأغصان، كل شيء فيها بسيط وبساطة الحياة هناك.

شعر أنه اقتطع تذكرة للعودة إلى الماضي وأنه على بساط ريح يتتبع نسائم التاريخ ويجره عقبه بعيدا عن هرج الشوارع الكبرى.

غرّته الابتسامات اللطيفة للأهالي البسطاء صباح ذلك اليوم..
فقد افتقد تلك الابتسامات وسط المدينة أو أنه كان يشك في
أنها كانت مصطنعة شيئا ما.

الابتسامة في ذلك اليوم وفي تلك المناطق المعزولة ألغت حواجز
اللغة.. هو لا يعرف اللغة الأويغورية لغة سكان الإقليم، وهم لا
يتقنون الإنجليزية ولا العربية أيضا ولا حتى لغة الماندرين اللغة
الرسمية للصين.

سار تامر ذلك اليوم طويلا دون كلل أو ملل كمن يبتعد عن
عثة الحاضر إلى رونق ووضوح الماضي البسيط.

ربما ضل الطريق ولم ينتبه إلى ذلك؟ وربما انتبه ولكنه لم يكن
مهتمًا فهو لم يفكر في العودة بعد؟

كان متلهفا لمواصلة السير فقط.. كأن له موعدا ما مع القدر
يجب أن يصل إليه، وربما كان يتقفى أثر ذلك القدر؟

لم يتوقف عن السير إلا حين استوقفه منظر عجيب لم يكن
يتصور أن يراه في منطقة يقطنها مسلمون بسطاء ومحافظون
جدا.

- صبايا يرقصن وسط الشارع !!

وليس أي رقص.. فدهشته كانت على قدر ما امتلأ رقصهن
بإغراءٍ لم يكن قد رآه إلا في الكباريهات والمراقص الليلية، لذلك
حدث نفسه سرا:

- المسلمون الأكثر انفتاحا وانبطاحا وتقليدا لا يرقصون في
الشوارع عادة.. فكيف ترقص بناتهم ونسائهم الأكثر جمالا
والأكثر فتنة في ساحة كبيرة وسط بيوت الطين الصغيرة التي
نشأ خلف جدرانها رجال منهم البخاري؟

تامر لم يكن يعرف طبيعة شعوره لحظتها، هل يفرح وقد وجد
بدل الفريسة فرائس؟ أم أن عليه أن يخاف؟ فقد يُعاقب على
فعله ويكون هو الفريسة ذاتها.

هو المخطئ حين توغل في مناطق محظورة لا يسمح للغرباء
بالوصول إليها فللصبايا الحق في الرقص كما يَحُلُو لهنّ، لكن
الذي لم يستطع تامر أن يستسيغه كيف لهنّ أن يرقصن وسط
الشارع بلباس فاضح؟ والأغرب من ذلك كله أنه كان برفقتهم
رجل طويل أنيق يرتدي بدلة رسمية.

لذلك كله لم يكن تامر يدري أين الخطأ؟ ومن المخطئ؟ وماذا عليه أن يفعل؟

شعر أنه توغل أكثر مما كان يجب عليه أن يفعل ودخل حيًا لمجتمع لا يعرف الكثير عنه وعن أهله ودون دليل سياحي أيضا.

أراد أن يتراجع إلى الخلف بسرعة قبل أن يقع المحذور فقد توقفت الصبايا عن الرقص حين رأيته وهو يشعر بأنه ارتكب جرما كبيرا، والمجتمعات المحافظة عنيفٌ أهلها حين يُعتدى عليهم.

لكنه فوجئ بذلك الرجل يناديه باللغتين الصينية والإنجليزية أن تقدم نحونا، بدل أن يزجره وينهاه، واستمر يكرر قوله:

- اقرب سيدي بإمكانك أن تنظم إلينا

تردد تامر في البداية لكن الرجل الأنيق كان مُصرًا ولم تبدو عليه أي أمارات انزعاج أو غضب من تصرف تامر، بل كان يريد منه أن يشاركهم اللحظة والمتعة معا وليس تامر بالذي يترك ذلك كله.

اتجه صوبهم ببطء شديد تدفعه الغريزة ويبطئ به الخوف
والشك.

لذلك اقترب نحوهم وهو يستحضر جُملا عديدة للاعتذار، جُملا
بالإنجليزية وأخرى بالعربية، أي كلمات المهم أن يَأمن شرهم ثم
يعود أدراجة بعدها مباشرة.. ذلك هو الذي كان يفكر فيه تامر
فقد غلب عنده الخوف الغريزة.. وشعور ما داخله كان يقول أنه
ارتكب خطأ وعليه أن يعود إلى الخلف.

ابتسم لهم ابتسامة ساذجة ونظر نحو ذلك الرجل الغريب
ليقول:

- أنا آسف سيدي إن كنت قد تسببت في أي مشكلة، أنا اسمي
تامر وأنا سائح سعودي ولا أعرف هذه المنطقة جيدا.
وهمَّ بالمغادرة.

بأدله ذلك الرجل الطويل بابتسامة عريضة دون أن يعلّق على
كلامه ووسّع له في مجلسه ليشاركه إياه، ليجد تامر نفسه في
مجلس سمرٍ في وضح النهار لا على ضوء القمر ومن دون ميعاد،
وبدأت الصبايا في الرقص مجددا.

لم يستطع تامر أن ينظر إليهن نظرة صريحة فهو يشعر بنوع من الحياء، ربما لا يزال يرى أن هذا فرح عائلي وأنه دخيل وغير مرحب به؟

هذه هي المرة الأولى التي يعجز فيها تامر عن إمعان النظر إلى نساء يرقصن دون أن يعرف السبب، والذي يمنعه شعور داخلي يعجز عن تفسيره.

حتى ذلك الرجل انتبه إلى أن تامر لم ينظر إلى الصبايا وهن يرقصن، وبقي يتساءل كيف لشاب في مثل عمره أن يُعرض عن صبايا في مثل فتنتهن لذلك سأله:

- قلّي تامر ألا تفكر في أن تشاركهن الرقص؟

شعر تامر لحظتها أنه في ورطة قد يصعب عليه الخروج منها، ورغم أنه يجيد الرقص خيرا منهن وبإمكانه أن يراقص أي امرأة ولكن ليست هذه الصبايا بالذات واللاتي يشعر أمامهن بحياء شديد لا يدري سره.

ربما هو ذلك الخمار الذي تضعه كل واحدة منهن.. فهو لم يسبق له أن راقص امرأة تضع فوق رأسها خمارا، هو يشعر أمام كل واحدة منهن أنها أخته أو أن فيها شيئا يمكن أن يكون لأخته.

ولكن كيف يمكن لتلك القطعة الصغيرة من القماش أن تكون حاجزا جبلا بينه وبين غريزته؟ وهي أقرب إلى المنديل منها إلى الخمار، كيف يمكن أن يقع ذلك؟ يتساءل تامر سرا.

هو منديل مزخرف ربطته كل واحدة منهن إلى الخلف، ويظهر من تحت ذلك المنديل الشفاف لون شعر كل واحدة منهن، وتُفلتُ بعضُ خصلات شعرهن من تحت تلك المناديل.

ومع كل ذلك هناك رائحة ما للإسلام ولعفة المسلمة خلف كل ذلك التبرج، على الأقل هن حفيدات البخاري وهو لا يحب أن يجهر بانتهاك الحرمات ولا أن يقترب ذنبا علنا.

لو كان فاعلا ذلك لفعله قرب الحرم المكي.. ولما ابتعد عن وطنه كل ذلك البعد طلبا للمتعة الخفية، كأنه رسم لنفسه دينا جديدا يبيح له ارتكاب الذنب سرا ويحرمه عليه جهرا.

أو أن في فطرته شيئا سويا وحاجزا نفسيا من بقايا الحياء لم يكن بإمكانه أن يتجاوزه.

تأخر تامر في الإجابة والرجل الوسيم لا زال يحدّق في عينيه مليا ينتظر رده والصبايا لازلن يرقصن دون اكتراث، وبدل أن يقول تامر أنه لا يريد أن يراقصهن.. سأل ذلك الرجل ليتهرب من الإجابة وليحاول فهم الذي يحدث أمامه أيضا:

- سيدي الملاهي عادة تكون في أماكن مغلقة، فهل هذا شكل جديد منها؟

حينها ضحك ذلك الرجل بصوت عال وهو يربت على كتف تامر قبل أن يقول:

- لا.. لا أنت مخطأ، هؤلاء الصبايا يرقصن حبا في الرقص ليس إلا والناس في هذا البلد متفتحون، مسالمون، يكرهون التعصب، يحبون الآخرين ويحبون إظهار ثقافتهم والرقص وسيلتهم في ذلك. لم يقتنع تامر كثيرا بكلام ذلك الرجل.. لذلك سأله مجددا وهو مستغرب:

- هل الصبايا مسلمات؟

انتظر تامر بعض الوقت قبل أن يشير ذلك الرجل برأسه:

- نعم.

كأنه كان مترددا في الإجابة وهو يبدو صادقا هذه المرة رغم أن سؤال تامر أزعجه وأفقده ابتسامته.

انتفض تامر لحظتها لا إراديا وشعر برغبة ملحة في الدفاع عن الإسلام والذود عن شرف المسلمات، رغبة لم يكن قد شعر بها من قبل فهو زير نساء وأبعد ما يكون عن الإسلام.

أراد أن يكذب قول ذلك الرجل رغم أنه يشعر بصدقه فهن حقا مسلمات لذلك رفع صوته مستنكرا وقائلا:

- لا يمكن أن تكون مسلمات فالمسلمة لا ترقص في الشارع لمجرد أنها تحب الرقص.

وفتح بقوله ذلك أكثر من باب وأكثر من تأويل لفعلهن الغريب فتغير وجه ذلك الرجل وكاد أن ينشب بينهما شجار لولا تلك الخطوات الحييئة التي قطعت نقاشهما الحاد.

التفت تامر وإذا بشابة تخرج من وسط الصبايا وهي تمد يدها إليه تدعوه ليراقصها وتمسك بيدها الأخرى طرف خمارها لتثبته على شعرها.

رفع رأسه إليها دون أن يملأ عينيه منها وهذه المرة ليس حياء منها ولكن احتقارا لها، فقد كان يتشاجر لأجل أن يُظهر أن المسلمة الحرة لا ترقص في الشارع وإذا بها تُخرجه أمام ذلك الرجل الغريب.. وتدعوه لما كان يقول أن المسلمة لا تفعله.

أشاح تامر بوجهه عنها وأراد أن يغادر قبل أن تمسك يده وتسحبه نحوها لتلتهمه أنوثتها، لم يكن قد مسَّ كَفًّا أنعم من كفّها ولا شمَّ عطرا أشهى من عطرها، وتفتحت أمامه كوردة بريّة وعلى عجل ضمته أوراقها البيضاء.. ونزل على عينيه جمالها كأمطار الخريف الرعدية المُغرقة.

ابتسم الرجل الطويل لتصرفها ذلك وهو يقول:

- أحسنت يا جيفنك.

لكن تامل لم يكن يسمع شيئاً فقد توسطت جيفتك به الصبايا
ودارت به رقصا دون أن تنظر إلى عينيه ودون أن يملك الجرأة
على مواجهة زرقاة عينيها.

أتخمته رقصا دون أن يملّ رقصها ودون أن يزول ذلك الحاجز
الذهني بينه وبينها وحتى غريزته لم تتجاوز ذلك الحاجز الخفي.

تساءل وهو بين ذراعيها دمية من دون حيلة تحركه أنفاسها
الدافئة وتعبث بوجهه خصلات شعرها:

لما كانت هذه الفتاة تتوسط الصبايا منذ البداية؟ هل كانت
تختبئ خلفهن حياء؟ أم أنها كانت تحاول أن تظهر بأنها الأجمل
حين توسطتهن؟ ولماذا لم تكن تبدو سعيدة وهي تراقصه؟ أليس
الرقص إظهار للسعادة وعلامة لها؟

نظر إلى عينيها نظرة صريحة للمرة الأولى علّه يجد جوابا لأكثر
من سؤال يدور في ذهنه عنها، وإذا به يرى خلف ضوءهما الحزين
وخلف تلك الزرقاة السماوية لعينيها بيت يسكنه الحياء ويخفي
أكثر من سر.

حياء لم يكن قد رآه في عيني أخته التي لم تراقص أحدا غير زوجها.

أراد أن يسمع صوتها ليشعر بقربها أكثر ولحاجة ما في نفسه، فسألها:

- ما بك أيّتها الجميلة تبدين حزينة؟

غير أنها لم تجبه.

كرّر سؤاله مرارا إلا أنها لم ترد.

ربما لم تكن تسمع صوته؟ أو ربما لم تفهم لغته؟ أو أنها لا تتحدث مع الغرباء هي تراقصهم فقط؟ وربما إسلامها أعرج كإسلام تامر تماما؟

لم يهتم تامر لذلك كثيرا، كان يريد فقط أن يستمر ذلك الرقص إلى الأبد لكي لا ينزل من العلياء ومن تلك السحابة البيضاء التي يطوّها بقدميه مغمض العينين.

لا بأس إن مات بين ذراعها، ولا بأس إن توقف التاريخ بالنسبة إليه، والرقص معها صار فجأة قضيته، وفجأة أيضا استلّت

كفها من كفه وسحبت جسدها عن ذراعه الملتفت حولها بشيء
من الخشونة التي لم تكن لتوافق رقّتها ورقّت جسدها.
ودون سابق إنذار توقف الرقص والحلم فجأة كما بدأ.

المشهد الثاني

الرقص في توربان أكبر من مجرد حكاية.

توقف الرقص واستفاق تامر من حلمه ذاك وهو يرى الصبايا
يبتعدن في اتجاهات متعددة يُسارعن الخطى، نظريمنة ويَسرة
فلم يجد ذلك الرجل الغريب يبدو أنه قد غادر المكان.

لحق تامر بالتى أغرقته رقصا وهو يتساءل:

- لما تسرع هذه المهرة البرية مبتعدة سرعة بائعات الهوى اللاتي
أدركهن طلوع الفجر؟ أم أنها كانت تسرع لتواري خطيئتها وتلحق
بالصلاة؟

كان يلحق بالتى لم يشغل باله غيرها دون أن يدري لما كان
يلحقها، هل كان يتبع غريزته ليُشبعها؟ أم يلحق قلبه ليطفئ
ناره التي اتقدت دون سابق إنذار؟ أم يلحقها مروءة ليعرف
سرهما ويحمي شرفها؟ فقد هالهُ منظرها وهي ترقص في الشارع
وفيهما شيء من عطر أخته.

هو يشعر أن هناك قرابة ما تربطهما أقوى من تدفق الدم الذي يسري في العروق، وهو بالكاد يعرف اسمها.

اختلطت عليه الأحاسيس كلها كما اختلطت عليه تلك الشوارع الضيقة التي كان يسارع الخطى فيها ليلحق فانتته.

والأمر لم يختلط على جيفتك فهذه ليست المرة الأولى التي يطاردها فيها رجل ما بعد كل حصة للرقص في الشارع، لذلك غادرت مسرعة لكي تفرّ بما بقي من شرفها وشرف أهلها.

وهي لا تخشى على شرفها المهلهل إلا ثلاثة أيام متتابة كل شهر، ففي غير تلك الأيام هي لا ترقص في الشارع إطلاقاً ولا حتى في البيت منفردة، وربما هي تكره الرقص أصلاً؟

إنه اليوم الثالث ولن تعود للرقص إلا في الشهر القادم.

ابتعدت مسرعة بكل ما أوتيت من قوة واختارت الأزقة الضيقة ذات المنافذ المتعددة كما كانت تفعل دائماً لتُفُلت من كل شاب يطاردها، لكن الذي يطاردها اليوم شاب مصرّ على اللحاق بها.. كأنه يريد شيئاً آخر غير الذي أراده كل الذين طاردوها من قبل.

كان تامر يسارع الخطى نحوها لكي لا يفلتها وهو يتساءل:

- ما سر هذه الفتاة؟ وماذا تريد إن لم يكن المال غرضها من وراء فعلها ذلك، هل حقا هي تحب الرقص فقط؟ إن كان ذلك فلما ترفض أن تراقصني الآن؟ هل هي جنية ترقص في ساعة ما من النهار ثم تختفي؟ أم أنسية مرغمة تتكلف الطلب؟

يواصل تامر تساؤلاته وهو لا زال يطاردها.

لم يكن بوسعها إلا أن تتوقف وقد أعيأها التعب، التفتت إليه حين اقترب منها وأمعنت النظر إليه لتلتقط أنفاسها قبل أن تحاول الهرب منه مجددا وقبل ذلك سألته:

- هل تريد مني شيئا سيدي؟

نظر إليها دون أن يجيبها وقد شُغف أكثر بها، وبما يجيبها وهو لا يدري ماذا يريد منها بالتحديد، لذلك اكتفى بابتسامة عريضة وهو يقول معرفا عن نفسه:

- يمكنك مناداتي تامر.

ابتسم لها ابتسامة مُربّية فقد شعر أن هذه الفتاة صيد سهل أكثر مما توقع لكنه فوجئ بها وهي تبتعد، فقد فهمت الفتاة من خلف ابتسامته مقصده ولم تتح له فرصة ليقترّب منها أكثر.

لحق بها مجددا فالتفتت إليه مرة ثانية ولكن بغير الوجه الأول وبوجه خال من الابتسامات تماما فقد ابتعدت بما يكفي عن المكان الذي كانت ترقص فيه لتصرخ في وجهه:

- تبا لك أغرب عن وجهي.

لم يفهم شيئا من كلماتها ولكن غضبها لم يكن ليخفى عليه.. ومع ذلك لم يبتعد عنها بل أصرّ على اللحاق بها فقد بدأت تعجبه اللعبة مع تمتّعها، ربما هي فقط تريد الكثير من المال؟

أليست هي التي عرضت عليه الرقص أمام الجميع.. لذلك لحق بها فالفراشات لا تستسلم في البداية هي تحب التحليق، الرقص واللعب.

ركضت لتفر بشرفها وركض خلفها ليشبع غريزته لتتوقف بعد أن نال التعب منها وشعرت أنها قد ابتعدت أكثر عن مكان

الرقص ومكان الخطيئة، وصاحب البطاقة المعلقة في الجيد لم يعد يراها.

اقترب تامر منها وهو يعتقد أن وقت اللعب انتهى وأنها استسلمت له، لم يقل لها شيئاً ابتسم لها ومد يديه ليعبث بأصابع يديها كما فعل وهو يراقصها أمام الجميع.

أراد أن يرقص معها مجدداً وأن يسكر مجدداً ولم يستفق إلا على صفعة أظهرت الأنامل الناعمة غليظة كمخالب قطة تسَّرتْ خلف جلد كفها الناعم، وانهالت عليه بالسب والشتم والضرب.

تسبه وتلتحب تبصق في وجهه وتبكي تركله برجليها ودموعها تسيل.. فقد شعرت أنه أخ خائن، ألم يقل أن اسمه تامر.

شعر تامر بحيرة خيال هذه الفتاة فقد دعتة للرقص أمام الجميع وتمنَّعت عنه حين انفرد بها، ولم يفهم سر الرقص ولا سر التمتع وهي تبتعد للمرة الأخيرة وهو ساقط على الأرض.

لوهلة بدأ يفكر في أن الذي جرى معه لا يمكن أن يكون حقيقة، ربما هو حلم؟ لكن عطرها المتطاير وهي تراقصه لا زال يشمّخ

أنفه ويديه لا تزال تحتفظ بنعومة كفيها.. وأثار قدميها وهي تركله
بأذية على ثيابه، إذن لم يكن ذلك حلما، أو ربما هو حلم غير
قابل للتفسير.

- سيدي (لي) هل يمكنني أن أدخل؟

كان ذلك طلب جندي من الضابط المسؤول عنه ليسمح له
بالدخول إلى مكتبه.. الطلب كان مستعجلا، هكذا بدى للضابط
لذلك سمح له بالدخول بسرعة وهو يقول:

- تفضل.

- سيدي هناك مشكلة أ..أ..أ السائح السعودي خارج السيستم.

ينهض الضابط لي من كرسيه وقد تغيرت ملامح وجهه تماما.

- ماذا تقول؟

ليرد الجندي

- منذ عشر دقائق أجرينا عمليات مسح بتقنيات التعرف على الوجوه بالاعتماد على جميع كاميرات المراقبة فلم نعر عليه.

- عشر دقائق وشخص يتحرك في منطقة هي تحت مسؤوليتي دون علمي!

خرج الضابط لي مسرعا من مكتبه باتجاه قاعة العمليات فالأمر يتطلب استنفارا أقصى لخطورة الوضع، ليعطي أوامر بتكرير محاولة البحث عنه من خلال وضع صورة له على السيستم.

بعد برهة قال أحد الجنود:

- آسف سيدي لا أثر له، يبدو أنه دخل منطقة ظل.

- لا وجود لمناطق ظل في المدينة ولا في إقليم شينجيانغ بأكمله، ذلك كان قبل 2017م، كرّر المحاولة هناك مشكلة ما في السيستم.

بعدها مباشرة انطلقت دورية مكونة من ستة مركبات كل واحدة منها مزودة بأحدث التقنيات.. وأجود الكاميرات عالية

الدقة والقادرة هي أيضا على معالجة آلاف الصور في الثانية الواحدة والتعرف على الوجوه بسهولة.. والوجهة هي آخر نقطة ظهر فيها السائح على السيستم، وعند تلك النقطة تفرقت الدورية في ثلاثة اتجاهات.

المشهد الثالث

عندما يصطدم

الأمن القومي مع الفن يصبح الأخير جريمة.

في قبو أسفل البيت كان الأب عثمان موجان يستعد لنثر حبره على الورق لتنبت خفية تحفة فنية من حروف وكلمات، ودون أن يشعل أي ضوء، اكتفى بنور شمعة واحدة بدل أن يلعن الظلام كله.

كان بإمكانه وبكبسة زرٍ أن يجعل من ذلك القبو مضاءً بأكمله، ولكنه لم يفكر في ذلك إطلاقاً فهو يعلم أن الأضواء قد تجلب له اللعنة بأكملها.

وموجان ليس في حاجة لضوء لتهدي أنامله لانحناءات كل حرف، هو يعرف كيف يرتفع بالحرف عالياً وكيف يسير به يمينا ثم شمالاً وتعرف يُمناه كيف تتدرج بين السُمك والرقّة عند كل حرف إذ ترسمه.

والحروف تعرفه كما يعرفها فتطيعه وتستقر ذيولها الطويلة
ورؤوسها المطموسة على الورق كما يشاء موجان لا كما تشاء
هي.

جلس الخطاط على كرسي خشبي وأسند ظهره إلى ظهره وجعل
ينظر إلى محبرة فوق الطاولة بها حبر زيتي وهو يمد يده لقلم
مشطوف الرأس مدبب.

لحظتها حُيِّل إليه أن الريشة تتطاوَل وتريد أن يلتقطها بدل
القلم لكي لا تُحرم من عزف حرف عربي.

فرك موجان عينيه مليًا وهو يغمس رأس قلمه في المحبرة بعد أن
ثبَّت الورق الذي لم يكن عالي الجودة على طاولة صغيرة.

صعد بالقلم ثم نزل به كما يفعل قائد الأوركسترا المحترف
والمُدْرَب تمامًا، أو كما تفعل أمواج البحر منذ الأزل ودون
حاجتها لأي تدريب.

فسار القلم على الورق وسال الحبر وتجلَّى الحرف العربي رقيق
الأطراف سميك الوسط مختالا بنفسه يعانق حرفا آخر خرج
لتوه من عتمة المحبرة إلى نور الورق الأبيض.

ما في العربية حرف قاصٍ يترك حرف آخر دون عناق، فإن انتهت حدود الكلمة الواحدة فرش آخر حرف فيها كفّه ظهرا ليمتطها أول حرف في الكلمة التي تليها، وتشبث الجميع بالأرض الطيبة وبالورق الناعم.

هل ذلك الخاطر هو الذي جعل عيني عثمان موجان تدمعان وهو يتأمل الأحرف التي رسمها؟ هل رأى فيها البنيان المرصوص الذي هدّه المسلمون بتفرقهم؟ حتى صاروا طعاما على قصعة تداعت كل الأمم إلى إليها؟

- هل يدري الحرف العربي أنه لا معنى له منفردا فضم كل حرف الحرف الذي قبله والذي يليه؟

يتساءل عثمان دون أن ينبت ببنت شفة.

كأن الحروف فهمت منذ الأزل أنه لا بقاء لمنفردٍ في عالم يتكتل.. وأن الذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية.

اغرورقت عيناه حتى فاضت وخالطت العبرات الحبر، والحرف بالورق متشبث، وعمّ الصراخ فجأة ليكسر كل ذلك السكون.

حين سمع عثمان ذلك الصياح وتلك الأصوات المرتفعة ارتعبت
فرائسه ونفخ في الشمعة ليطفئها ويلعن بذلك نورها.. وهو يمد
يده لمحبرته ليسكب حبرها على حروف كلمتي (السلام عليكم)،
لتختفي الحروف والتحفة خلف ذلك الطلاء الأسود ويعم ظلام
القبو وظلام الحبر.

أخذ عثمان موجان يتحامل على نفسه متكأ على عصاه
يتحسس الأثاث من حوله وهو يصعد السلالم مسرعا يتتبع
مصدر الأصوات المرتفعة.

ما إن فتح الباب الذي يفصل القبو عن بهو البيت حتى توقف
الصراخ فورا ليجد ابنته وزوجته تقفان مذهولتان فموجان
يكاد يكون مقعدا.. كيف له أن يصعد السلالم بمفرده؟ وبقي
هو أيضا مندهشا فلم يسبق لابنته أن رفعت صوتها في وجه
أمها.

اسرعتا إليه لتساعدها على الجلوس أرضا وقد عاوده ألم قدميه
مجددا، لم يشعر بذلك الألم وهو يصعد السلالم فقد كان
يعتقد أن مصيبة ما وقعت.

اعتذرت رحمة لوالدها وقد رأت الرعب في عينيه وبقايا عبرات
على خده واصفرارا في وجهه لم تلحظه من قبل وغابت مسرعة
حياء منه وتركته يردد قوله:

- الحمد لله.. الحمد لله.

فالرعب الذي أحسّه موجان لا يمكن أن يوازي غير رعب زيارة
رجل من الهان لبيته، ذلك هو الذي خشيه وجعل قدميه
العاجزين تحملانه دون وعي منه.

يعود موجان إلى القبو بعد أن استرجع أنفاسه ولكن هذه المرة
بمساعدة زوجته جميلة ودون أن يسأل عن سبب الصراخ،
المهم أنه لم يقع الذي كان يخشاه، وربما فهم السبب دون أن
يسأل.. فهو يعرف أن ابنته رحمة لا تريد أن تتزوج ابن عمها
حبيب الله وهو مصرّ على تزويجها إياه.

يعود موجان إلى مكان ارتكاب الذنب ومكان الخطيئة والرزية
التي كانت من قبل مزية يفخروا بها.

عاد إلى قبوه ليس كما يعود المذنب إلى مكان الجريمة بل كما
يعود البريء الذي لا ذنب له إلا أنه يتطهر.

بعد أن أجلس الزوجة موجان على كرسيه وأشعلت له الشمعة مجددا سألته باستغراب:

- موجان إن كنت تخشى أن تعثر الشرطة على تلك الرسومات في البيت فلما تواصل الرسم؟ لما تكتب تلك الأحرف اللعينة التي تراها جسرا إلى السجن والعذاب؟ لما تواصل إراقة الحبر على الورق وأنت تعلم أنه قد يُراق لذلك دمك؟ ماذا لو وشي بك أحدهم؟

- لما تعذب نفسك مرتين؟ تكتب خفية وتتلف عملك عند انتهائك منه، لما تغزل ما دمت ستنقض غزلك في النهاية؟

نظر موجان إليها باستغراب أكبر، أليست تعرف ولعه بالحرف العربي؟ وأن روح الكتابة تسكنه وتسكن روحه عند حروفها.

أليست تعرف بعد كل تلك السنين الطويلة التي قضتها برفقته أن عذاب ابتعاده عن تلك الأحرف أكبر من عذاب معسكرات إعادة التثقيف؟ وأن عشقه للريشة والقلم ينسيه خوفه من كرسي نقض الذات.

نعم هي تعرف كل هذا ولكنها تريد منه أن يبتعد عن الحروف لكي لا يفقد ولديه وحياته.. وهو لا يرى حياته إلا بقرب تلك الأحرف وتلك الريشة.

لم يُجب زوجته اكتفى بتحريك رأسه فهو يعرف ما يدور في ذهنها كما تعرف ما يدور في ذهنه.

غادرت الزوجة فاقتلع موجان الورقة المثبتة على الطاولة، وأخذ ينظر إليها وإلى الحروف التي اختبأت خلف الطلاء وبقيت تُطلّ برؤوسها فقط.

تساءل وهو يدني تلك الورق على مضض إلى الشمعة لتلتهما على عجل وتخفي آثار الحروف عليهما:

- هل يمكن لهذه الحروف العربية أن تسترد مكانها على الورق وقد احتلته فوضى الحبر، وأحرقت النار أرضها التي تشبث بها؟ أم أنه ليس بإمكان تلك الحروف أن تفعل شيئاً، هي فقط تستسلم لثَوَادٍ بهدوء تماماً كما كان يُفعل بالبنت العربية؟

هل يواصل موجان الكتابة واتلاف مخطوطاته كلما أتمّ واحدة منها؟ لما ينفخ الروح فيها بالحبر وبالحبر ذاته يقتلها؟

لما يتركها ترى نور الشمعة فقط وبذلك النور أيضا في الأخير
تحترق؟

هل هذا هو الصواب؟ أم الصواب أن يترك الكتابة إلى الأبد؟
فلا أحد من الأويغور أصبح مهتم بلوحاته، ولا أحد سيجراً على
النظر إليها ناهيك عن شرائها وتعليقها في البيت.

لم يعد لموجان أي مدخول فقد توقفت تجارة بيع ألواح الفنية
منذ سنة 2017م، ولم يعد قادراً على توفير الورق الأبيض
لتعيش الحروف العربية عليه، ولا هو قادر على توفير المال
لتعيش ابنته وزوجته حياة كريمة.

شعر أنه أخطأ حين أرسل ولده الوحيد للدراسة في الأزهر قبل
عدة سنوات، ليس لأنه دفع إليه كل مدخرات حياته فالأويغور
لا يدّخرون المال إلا للحج.. أو لطلب العلم في مهد الإسلام، بل
لأنه كان يتمنى أن يرى ابنه أحمد بجانبه الآن سنداً ومعيناً.

لو كان أحمد معه لما عرض على حبيب الله أن يزوجه ابنته
رحمة، ولما سمح لها بالخروج إلى العمل.

لم يعد هناك أي اتصال بين موجان وبين ابنه الوحيد وذلك كاف لجعله يشعر بالندم أيضا على إرساله بعيدا عنه.

كان يتمنى أن يراه قريبا منه ولكنه لا يريده أن يعود إليه، فكل الذين عادوا بعد الدراسة في الأزهر أو في مكة تم اعتقالهم، وذلك أكثر شيء كان يؤلم موجان.

وارتفع الصراخ مجددا ولكن دون أن يشعر موجان بالفرع هذه المرة، يبدو أنه قد بدأ يعتاد الصراخ في بيته.

كانت الأم تحاول اقناع رحمة بالزواج من حبيب الله فهو الحل الوحيد ليس لها فقط بل للأسرة ككل، وكانت رحمة متمسكة بالعمل كحل بديل.

تغيّرت رحمة كثيرا بعد خروجها للعمل، فلم تكن من قبل ترفع صوتها في وجه أمها، هناك شيء ما جعلها تتغير تماما، وهذا سبب آخر يجعل أمها متمسكة بتزويجها من ابن عمها.

لذلك أخذت الأم تبين لابنتها خطورة العمل بالنسبة لفتاة من الأويغور، بل خطورة مجرد الخروج من البيت.. لكن فتاة في عمر

الزهور لم تكن تُقدّر تلك الخطورة جيدا وكانت مصرّةً على
المواجهة.

المشهد الرابع

حتى "السلام عليكم" في مكان ما قد تحمل
نقيضها.

حاول تامر الخروج من تلك الأحياء الشعبية لكنه ضلّ الطريق
لحدّ شعرفيه بمزيدٍ من التوتر وربما الخوف أيضاً، فكل شيء
يبدو غريباً هنا.

لا يمكنه أن يهتدي إلى الفندق الذي يسكنه دون أن يسأل
أحدهم، لكن لا وجود لأي رجل في تلك الأزقة الشعبية الضيقة..
كأنه في قرية من دون رجال، ولا يمكنه أن يسأل أي امرأة
فتجربته الأولى مع فتاة من الأويغور كانت غريبة وهو لا يريد
المجازفة مرة أخرى.

لحسن الحظ وجد بعض الأطفال وبإمكانه أن يسألهم عن
طريق الخروج من تلك المتاهة، لكن بأي لغة سيحدثهم؟ بدأ
يقترّب منهم تسبقه ابتسامته وهو يفكر في جملة بلغة صينية
فهو يحسن شيئاً منها.

- مرحبا.. كيف حالكم.

لم يرد عليه أي أحد منهم واكتفى الجميع بالابتسام.. والابتسامات لحظتها اختزلت كثيرا من فوارق اللغة، فلا أحد منهم كان يفهم ما يقوله تامر لكنه لم يزعج من ذلك، ففي عيونهم كثير من البراءة استأنس بها واخرجته من ذلك الجو المريب.

تذكر تامر فجأة وهو يلعب أحد الصبية أنه في مجتمع مسلم ولا بد أنهم يعرفون تحية الإسلام، لذلك قالها على عجل يتحجب بها للأطفال، وربما ليودعهم قبل المغادرة إن لم يدلوه على طريق العودة.. لفوارق اللغة بينهم.

- السلام عليكم.

تغيّرت وجوه الأطفال بسرعة وفارقتهم الابتسامات وامتزجت نظرات البراءة في عيونهم بكثير من الرعب.. قبل أن يلوذ الجميع بالفرار في مشهد كادت معه دقائق قلب تامر أن تتوقف.

أشجع صبي منهم وضع سبابته على شفثيه وأشار لتامر.

- أشششششت.

ليُنزل بعد ذلك الصبي يده ويضعها على رقبته كحد للسيف
ويفر هو الآخر تاركا تامر مذهولا.

- هل هذه متاهة أم أحجية؟

يتساءل السائح السعودي وقد بدأ يشعر بخوف لم يكن قد
شعر به في أي مكان زاره من هذا العالم.

- ما الذي يحدث؟

أزيز ثم اهتزاز لشيء قادم ثم ضجيج، وارتفع الغبار فجأة وكُتِلت
يدي تامر بسرعة ليُلْقَى داخل عربة عسكرية، كان ذلك عنيفا
وسريعا.. لكن تامر شعر بقليل من الراحة النفسية فعلى الأقل
الشرطة تعرف كيف تُخرجه من تلك المتاهة.. ولو صوب
السجن.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تعتقله فيها الشرطة منذ وصوله
إلى توربان لكنها المرة الأولى التي يشعر فيها بالسعادة لأن الشرطة
اعتقلته.

بدأ أفراد الشرطة في استجوابه قبل الوصول إلى المقر ليسأله
أعلاهم رتبة بلغة انجليزية.

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

رد عليه تامر ولكن بلغة صينية رغم أنه يتقن الإنجليزية أفضل،
فهو يريد أن يكسب مودته وربما ليأمن شره أيضا.

- سيدي أنا سائح سعودي.

- أنا أعلم ذلك ولكن ما الذي جاء بك إلى هذه الأحياء بالذات؟

حاول تامر إقناع الشرطي أنه وصل لتلك الأحياء صدفة ليس
إلا، فقد زار أغلب أقاليم الصين وهو يزور اليوم مدينة توربان
في إقليم شينجيانغ، دون أن يقول أنه كان يبحث عن فريسة ما
قبل أن يصير هو الفريسة نفسها.

ولا استطاع أن يقول أنه جاء إلى توربان للقاء رجل وعد بأنه
سيوفر كلفة لأخيه المريض بسعر مناسب.

وتوالى الأسئلة التي كان تامر قد أجاب عنها في كل مرة تم
اعتقاله فيها ولكن لم يكن كلامه هذه المرة مقنعا.

أدخل تامر إلى مكتب الضابط لي ليعيد استجوابه مجدداً، وقبل ذلك تم تجريده من كل مقتنياته خصوصاً هاتفه الخليوي والذي تم مراقبة محتوياته بدقة، ولحسن حظ تامر لم يكون قد التقط أي صورة رغم أنه مولع بالتصوير.. فلفرط دهشته لما رآه في ذلك الصباح نسي أن يستعمل كاميرا هاتفه.

لم يطل الأمر كثيراً قبل أن يطلب الضابط لي من جنوده أن يطلقوا سراح تامر، ربما لأنه اقتنع بكلامه، وربما اطمأن له فهو يجيد قليلاً من الصينية وكثيراً من الرقص.. والرقص وحده يكفي في شينجيانغ للدلالة على الفكر المعتدل وعدم التطرف أو التشدد.

وقبل إطلاق سراحه التقطت له بعض الصور وأجريت له بعض التحاليل، لتضاف لقاعدة بيانات ضخمة.. لعينات من الأصوات، الأحماض النووية، بصمات الأصابع، قزحيات الأعين، حركات الأجسام وملامح الوجوه لأكثر من 40 مليون شخص من الأويغور داخل شينجيانغ.

خرج تامر وتوجه صوب الفندق وملاح تلك الفتاة تأبى أن تغادر عينيه وعقله يأبى التوقف عن التفكير فيها.

والضابط لي لم يكن يفكر إلا في سبب خروج هذا السائح من السيستم ولبضع دقائق، لكن ذلك لن يطول فملايين الكاميرات لا تزال تتركب يوميا وشبكات الاتصال الحديثة تُمد باستمرار، لن يكون في شينجيانغ مكان دون كاميرا مراقبة.. حتى المراحيض وحتى أعشاش الطيور ولن تستثنى صخرة تحتها قرية نمل.

- أيها الجندي.

- نعم سيدي.

- أريد تقريراً يومياً عن حركة هذا السائح وإياكم أن يخرج عن المراقبة واستعينوا بالطائرات المسيّرة.

الضابط لي لم يكن يريد ترحيل تامر قبل أن يعرف سبب قدومه بالتفصيل، ولا النجّ به في السجن قبل أن يجد أجوبة عن تساؤلات كانت تدور في ذهنه.

المشهد الخامس

الحزام هنا ينقل الوباء والدواء.

استيقظت رحمة باكرا كالعادة لتذهب للعمل، بدأت بتنظيف وجهها وتغيير ثيابها بينما كانت الأم جميلة تراقبها وهي متكئة على سريرها في الغرفة المجاورة.. قبل أن تسرع في القيام لتنبّه ابنتها إلى التوقف عن المبالغة في النظافة وفي تصفيف شعرها.

الأم لم تكن تحب أن تظهر ابنتها بمظهر جدّاب كلما خرجت من البيت، نَهَتْها مرارا إلى ضرورة ارتداء أسوء الألبسة لديها، على كل حال لم يكن لدى رحمة إلا ألبسة قديمة، هي لا تذكر متى كانت آخر مرة تحصلت فيها على فستان جديد.

ومع ذلك كانت الأم مصرّة على جعلها تلبس أقدم الألبسة وتفرض عليها الألوان غير المتناسقة، فهي تعلم أن ابنتها فائقة الجمال وتحتاج جهدا لإخفاء شيء من ذلك الجمال.. وليس جهدا بالمساحيق لإظهاره.

وضعت رحمة خمرا على شعرها وهي تنظر إلى المرأة والأم تنظر إليها أيضا لتضعه جانبا والعبرات تغلها.. فقطعة صغيرة من القماش المزين تكفي في توربان لإظهار الفكر المعتدل.

لم تكن رحمة مقتنعة بفعلها ذاك ولكنها بدأت تعتاد قطعة المذلة تلك، وخصلات شعرها اعتادت على أن تباهي أشعة الشمس الصباحية بصفرتها الذهبية.. ورحمة لم يكن أمامها إلى أن تلتزم بقانون الحزب المسى مشروع مدني أو مشروع الجمال، لذلك كلمة مدني هي الكلمة الأكثر رعبا في شينجيانغ كلها.

اعتادت رحمة أيضا على كشف قليل من ساقها وقد كان ذلك لوقت قريب كبيرة لا تجرأ على فعلها أي فتاة من الأويغور، والأم لم يكن بإمكانها لحظتها أن تقول لابنتها لا، فرحمة مخطئة بتركها لبعض تعاليم الإسلام ولكن مع ذلك لا ذنب لها فهي مرغمة.

سارعت رحمة إلى حمل بعض الأغراض التي تحتاجها وقليلًا من الطعام.. لتخرج على عجل لكي لا ترى أمها عبراتها التي بدأت تنكسر لتفلت من قبضة أجفانها.

الأم أيضا كانت تبكي بصمت وتدعو لابنتها بصمت وتقول في نفسها:

- رحمة إياك أن تبتسي لأي أحد، إياك أن تثيري الانتباه، أنوثتك يجب أن تبقى خفية خلف تلك الألبسة القديمة شديدة الاتساع.

تُطل الأم من الباب لترقب آخر خطوات ابنتها قبل أن تبعد متمنية أن لا تُعجب ابنتها أي رجل من الهان فتقع المصيبة.

والأب موجان جالسٌ في مُصلاه يكاد يقتله الغيظ ويتظاهر باللامبالاة لكي لا يتوقف قلبه كمدا على منكر في بيته لا يستطع أن يغير منه شيئا.

وصلت رحمة إلى المصنع حزينة وكادت أن تنهار أمام عتباته، تذكرت كل تلك العقوبات التي فرضت عليها خلال الأشهر

الماضية من قبل المسؤول عن المصنع.. وكانت سببا في تغير كثير من تصرفاتها.. بل ربما أخلاقها أيضا.

يقولون عنها داخل المصنع متمردة، وهي ترى نفسها مسلمة جريئة وحرّة.

وقبل أن تذهب لخط الإنتاج لحياكة سجادات الصلاة التي لا تجرأ على امتلاك واحدة منها.. أمرها أحد المسؤولين بالتوجه لقاعة المحاضرات.. فهناك مسؤول من الحزب يريد أن يلقي كلمة بمناسبة تصدير أول شحنة من منتجات هذا المصنع باتجاه دول الخليج العربي، اعتمادا على طريق الحرير الجديد.

شرح ذلك المسؤول للعمال أهمية طريق الحرير الجديد أو مشروع الحزام والطريق.

بيّن لهم أنه أكبر مشروع بنية تحتية في تاريخ البشرية، طرقات، سكك حديدية، موانئ، مناطق صناعية... الخ والهدف من المشروع تسريع وصول المنتجات الصينية للعالم بأسره.

قال لهم:

- أنفقنا وسننفق أكثر من ألف مليار دولار على هذا الطريق، ولكننا سنجنّي الأضعاف والهيمنة والقوّة والعالم كله سيكون سوقا لنا.

بيّن لهم أيضا أنهم في هذا المصنع نواة ولبنة لا يمكن الاستغناء عنها لأجل الحلم الصيني ولأجل ذلك قال.

- أنتم يا سكان شينجيانغ ستكونون أفضل حين تفرغون أذهانكم من أوهام الدين، ذلك الأفيون الذي لن يسمح لنا بالتطور.

هنا بدأت رحمة تشعر بالغضب ولا يمكنها أن تسكت أكثر، رفعت يدها تريد أن تستأذن لترد عليه لكنه لم ينتبه لها فواصل قوله.

- الإسلام أشبه بالوباء الذي يحتم علينا أن نعزل المصابين به لنعالجهم، لأجلهم ولأجل الوطن، وعلينا أن لا نسمح بانتشار هذا الوباء لكي لا نصاب جميعا.

لم تتمالك رحمة نفسها وقامت من مقعدها لترد عليه بصوت مرتفع ودون استئذان.

- سيدي نحن في هذا المصنع نُنتج السجّادات وساعاتٍ لتحديد مواقيت الصلاة والسباحات الإلكترونية وبوصلات تحديد القبلة ونصدّرها للعالم كله، فهل هذه أدوية للوباء أو وسائل لجعله ينتشر أكثر؟

حاول أحد المسؤولين عن المصنع إسكاتها ولكنها لم تتوقف فقلّبتها قد امتلأ غيضا من كل الذي حدث لها، من كل الذي يعانيه والدها ويعانيه الأويغور جميعا.

هي تريد أن تعبّر عن رفضها لكل ذلك وإن كان الثمن حياتها، بل ربما هي تحاول أن تستفّر مسؤول الحزب ليأمر بقتلها لتخلص بذلك من حياتها، فالموت كفيل بأن ينسبها مرارة قبول الابتزاز.

أكثر شيء كانت تخشاه رحمة أن يعلم والدها أنها وافقت لأكثر من مرة على العقوبات المفروضة عليها مقابل أن لا تُطرد من العمل.

فالعقوبات كانت بالنسبة إليها ميزانا، على إحدى كفتيه شرفها والطعام ودواء والدها على الكفة الأخرى، فاختارت البقاء.

لذلك كله قالت له بكل جرأة:

- ماذا لو انتشر هذا الوباء في العالم كله من خلال منتجاتنا وحاصرنا الوباء بعد ذلك كيف سنتعامل، هل سنوقف العمل ونحن نواة مهمة للحلم الصيني؟ أم نواصل إشعال ناره بمنتجاتنا؟

ألم يصل هذا الوباء (الإسلام) إلى الصين قديما بفضل التُّجَّار وباستعمال طريق الحرير أيضا، ونحن بإحيائنا لهذا الطريق نسمح للوباء بأن يعود بقوة أكبر.

يشتاط مسؤول الحزب غيضا ويرفع صوته قائلا:

- أُسكتي.. أخرجوا هذه الوقحة من هنا.

يتدخل رجال من الشرطة سريعا لإخراجها، يكبّلون يديها ويلقونها بقوة داخل مركبة عسكرية مدرعة لتوجه إلى أقرب مركز للشرطة قبل أن تسجن في معسكرات إعادة التأهيل أو إعادة التثقيف.

كانت خائفة لحظتها على ما بقي من شرفها أكثر من خوفها على حياتها وبدأت تشعر بالدوار.

والمسؤولون في المصنع كانوا أشدا خوفا من رحمة ليس على شرفهم بل على حياتهم، فمسؤول الحزب قد يعاقبهم جميعا على وجود فتاة متطرفة في المصنع.

وهل سيجرؤون على القول أن السبب هو الأجور الزهيدة التي يسمح القانون بدفعها للأويغور، وهي أقل بكثير من الأجر الأدنى المعمول به في البلد، بل هذا المصنع فتح فرعا له في توربان للسبب ذاته.

وصلت المركبة إلى مركز الشرطة لتُجَرَّ رحمة إلى إحدى الغرف المظلمة، تُدفع بقوة ومع أول لكمة يرتفع صراخها ويرتطم رأسها بإحدى الجدران.. لتفقد وعيها وتسقط على الأرض والدم يسيل من على جبينها ومن شفتيها.

يُفتح باب تلك الغرفة وإذا به الضابط لي يقف على عتباتها. يلتفت الجنود للإلقاء التحية العسكرية ودون أن يحرك أحد منهم ساكنا أو ينبت ببنت شفة، فلي أكثر الضباط صرامة في توربان، يعرف جنوده بطشه كما يعرف ذلك جميع الأويغور.

سألهم قائلا:

- ما الذي يحدث هنا؟

أجابه أحدهم بقوله:

- إنها فتاة متمردة أساءت الأدب مع المسؤول الجهوي للحزب
وقد أوصى بتأديبها وتحويلها إلى معسكرات إعادة التثقيف.

اقترب الضابط لي من رحمة ليلقي نظرة قبل الخروج لكنه لم
يخرج بل بقي يتأملها مندهشا خالها للوهلة الأولى حورية نائمة،
اقترب منها أكثر ويهدوء مد يده ليمسح الدم عن خدها.

تاه في قسمات وجهها، فتحت عينيها لحظتها لتجعله يغرق في
بريق عينيها لوقت لم يكن قصيرا.

لم يقل شيئا بل ظل ساكتا ليستفيق على سؤال أحد جنوده:

- سيدي هل تأمرنا بشيء؟

انتبه لي إلى أنه اخترق الأعراف فضابط رفيع مثله لا ينزل بذلك
الشكل المهيمن على الأرض لأجل فتاة متمردة، حينها رفع جسده
واستوى واقفا وابتعد عنها مستدركا على نفسه وهو يقول:

- نعم قدّموا الإسعافات لها وأحضروا تقريراً مفصلاً عنها لمكتبي.

جلس الضابط لي في مكتبه شارد الذهن يفكر في سبب ضعفه أمام تلك الفتاة، وهو الذي لم يسبق له وأن تساهل مع أي متهم من الأويغور.

سجن وعذب العلماء منهم وكبار التجار والفنانين ولم يضعف مع أي أحد منهم صغيراً كان أو كبيراً، وها هو الآن يجد نفسه عاجزاً أمام تلك الفتاة.

ما هي إلا لحظات حتى استأذن أحد جنوده ليضع بين يديه التقرير المطلوب ويغادر بعدها.

تناول الضابط التقرير المقدم إليه ليقرأه كاملاً، لم يكتفي كما اعتاد بالصفحة الأولى التي تلخص محتوى كل تقرير.

كان متلهفاً ليعرف اسمها وكل شيء عنها وأشبع ذلك التقرير فضوله، فهو لم يترك شيئاً عنها إلا ذكره حتى آخر وجبة تناولتها وكل ذلك بصورة واحدة على السيستم.

فكّر لي في أن يعود إلى تلك الفتاة وإلى تلك الحجرة المحتجزة فيها لينظر إليها مرة أخرى أو ليسأل الطبيب عنها لكنه لم يفعل ذلك لكي لا يُفتضح أمام جنوده ثانية.

وعلى كل حال هو يعرف كل شيء عنها ويعرف أين يجدها، لذلك اكتفى بتقديم أوامر بتركها تذهب.

ذكّر جنوده بأن المسؤول عن الحزب يريدّها في السجن ولكن لي اكتفى بقوله.

- اتركوها تذهب أنا سأتعامل معها.

وقف لي بعدها حائراً فهو لم يسبق له أن رفض للمسؤولين طلباً ولا خالف لهم رأياً وها هو الآن يتمرد على مسؤوليه لأجل فتاة متمرّدة.

لا يعرف الضابط لي أمه ولا والده فهو ابن الدولة المخلص، هو لم ينشأ وسط أسرة ولا يعرف شيئاً اسمه الرأفة.

لي لا يعرف الأشخاص بل القوانين لأجل ذلك تم ترقيته مرارا
وفي فترات وجيزة، ولأجل ذلك أيضا يهابه الجميع حتى الضباط
الأعلى منه رتبة.

المشهد السادس

الإنسان يحترف تزيف الحقائق، لذلك قد يكون
الجمال والتمدن مشروعاً ممنهجاً للاضطهاد.

من داخل غرفته في الفندق كان تامر متعباً وشارد الذهن تجول
خوابه بعيداً، ألقى بجسده على السرير ليعيد على نفسه
استذكار كل الذي حدث معه خلال أيام معدودة.

تذكر كيف رُفض طلب حصوله على تأشيرة للدخول لهذا
الإقليم مراراً، ولولا أنه دفع رشوة مغرية لما سُمح له بالدخول
إلى توربان برا.

تذكر صديقه الصيني يويان وكيف قطع علاقاته به ورفض أن
يرد على اتصالاته بل تحاشاه مراراً لمجرد علمه بأن تامر ينوي
زيارة شينجيانغ.

تذكر كيف اعتقل مرارا ودون سبب يذكر.

دون أن ينسى تلك العيون الخجولة، عيون الأطفال البريئة والتي
أتخمنها الرعب عند سماع تحية الإسلام.

لأجل ذلك كله قام تامر يجمع أغراضه، لا يمكنه أن يبقى في
مكان موحش لهذا الحد.

لو توجه صوب عاصمة الإقليم جواً بدل التوجه إلى توربان براً
لكان أفضل له ولأخيه الذي هو في انتظار متبرع بكلية، لكن طمع
تامر هو الذي جعله يختار هذه المدينة.. فهناك من وعده بتوفير
كلية بسعر أقل مما هو عليه في المستشفيات المرخصة والمنشرة
بكثرة في عاصمة الإقليم.. والتي أوصته أمه بالتوجه إليها.

- أمي.. كيف نسيت الاتصال بها؟

حينها خرج تامر من غرفته ونزل السلالم مسرعاً نحو مكتب
الاستقبال ليجري مكالمته مع أمه.. فقد جرّب الاتصال بها مراراً
بمجرد وصوله للإقليم من خلال هاتفه الخليوي ولكن الخدمة
كانت غير متوفرة.. وقبل أن تنسيه أهوال شينجيانغ أمه لعدة
أيام.

طلبت منه الموظفة قليلا من الوقت لتجهّز له الخط، هذا الذي قالته.. ودون أن تقول أنها تريد أن تتأكد أن جهاز تسجيل المكالمات شغال.

- تفضل تامر أمك على الخط.

سألته الأم بلهفة عن أحواله حين سمعت صوته وبالكاد استطاع تامر أن يجيب أمه على بعض الاستفسارات قبل أن ينقطع الاتصال.

- سيدتي انقطع الاتصال.

لترد عليه الموظفة.

- لقد انتهى وقت مكالمتك وهذه هي الخدمة التي يستطيع الفندق تقديمها وغدا يمكنك إجراء مكالمة دولية أخرى.

سأل الموظفة عن استحالة إجراء مكالمات دولية من هاتفه الخليوي.. وعن انعدام الربط بشبكات الأنترنت لكنها نفت ذلك وتحججت بأنه يتم تحديث خطوط الاتصال ليس إلا.

لم يقتنع تامر بكلامها فوسائل الاتصال الحديثة وأجهزة المراقبة التي رآها في هذا الاقليم ليس لها نظير في البلد بأكمله بل في كل مكان زاره من هذا العالم.

الانتقال فقط من شارع إلى آخر داخل هذا الإقليم يكون من خلال العبور على أبواب الكترونية ذكية تعرف وجوه جميع سكان هذا الإقليم.

عاد لغرفته مجددا ليجمع ما تبقى من أغراضه وهو يزداد قناعة كل لحظة أن البقاء في هذه المدينة خطرٌ للغاية.. بل قد يدفع حياته ثمنا لذلك.

يُطرق الباب وإذا به نادل يحمل أطباقا تبدوا شهية.. استأذن ليضعها على الطاولة قبل أن يغادر.

نظر تامر لتلك الأطباق المتنوعة، هو يعرف ما فيها من أكالات.. فطبق سبرينغ رولز أو الدجاج المحشو بالخضار كان سيّد تلك الأطباق.

وطبق آخر من أسماك متنوعة لم يكن قد تناوله تامر من قبل، أراد أن يمد يده ليحسّو حسوات من شوربة وان تان إلا أنه لم

يستطع أن يفعل ذلك وفضل أن ينام.. فلا شهية له هذا اليوم
وإن كان جائعا.

في تلك اللحظة بالذات وهو على سريرهِ تذكر جيفنك.. نعم تلك
الحسنة، كيف غابت عن ذهنه هي الأخرى، أغمض عينيْن
ليستذكر ملامح وجهها و إذا بصورتها تمتزج بصورة أخته مجددا
و تختلط عنده الملامح والقسمات، شَمَّ ثوبه علّه يتلقف عطرها
لكن دون جدوى.. وخشونة الشرطة أفقدت كفه نعومة كفّها.

لماذا يصرّ ذهنه على أن يرسم تلك الفتاة في صورة أخته ولما
يشعر اتجاهها بمسؤولية ما لا يدري ماهي؟ لذلك فكّر بجدية في
عدم مغادرة الإقليم حتى يراها مرة أخرى ويعرف سرّها.

- الأمر خطر ولكن لا بأس بالمجافة.

هذا ما كان يُحدّث تامر نفسه به وهو مستلقٍ على سريرهِ.. وبدى
له لحظتها أن ذلك الرجل الطويل ذو البدلة الأنيقة قال للفتيات
نلتقي غدا في نفس التوقيت والمكان ذاته.

هل حقا قال لهن ذلك الرجل تلك الكلمات حين كان تامر يراقص أجملهن؟ أم أن ذهنه وشغفه بها هو الذي قال كل شيء؟

يوم واحد فقط يلتقي فيه تلك الحسناء للوداع أو ليُشبع شيئا ما داخله، هو ليس غريزة بالكامل وليس فضولا وحسب، وربما هو فيض من الحب العابث بالقلب مختلط بشعوره بالمسؤولية اتجاهها لشيء ما؟

هو لم يعرف بالتحديد طبيعة شعوره اتجاهها وذلك سبب آخر يدعوه ليراها مرة أخرى، يوم واحد يلتقيها فيه ثم يغادر هذا الإقليم دون رجعة.

إنه قراره النهائي الذي نام عليه واستيقظ صباحا لينقذه.

فكر صباح ذلك اليوم في أنه يجب عليه أن يطلب إذنا من الشرطة ولكنه لم يفعل ذلك فقد اعتاد على الاعتقال والاستجواب، وربما لم يكن قادرا على الانتظار.. هو متلهف ليراها؟

سارع الخطى صوب بيوت الطين الصغيرة، لم يكن قادرا على تذكر الطريق جيدا.. يرشده عقله حيناً ويدله قلبه أحيانا أخرى عن مكان العفة والخطيئة معا.

لم يطل الأمر كثيرا حتى وصل..

- يبدو أن المكان خاوٍ هذا اليوم.. لا أحد هنا.

التفت يمينا وشمالا فلم يعثر على أحد، جلس على الكرسي الحجري الذي كانت جيفنك تجلس عليه حين كانت تتوسط الصبايا وإذا بالرجل الأنيق يفاجئه ويقف أمامه قائلاً:

- مرحبا.. أنت تامر أليس كذلك؟

- نعم سيدي أنا تامر.

جلس الرجل الأنيق إلى جانب تامر فشعر حينها بسعادة مريبة غمرت قلبه وجعلته ينبض بسرعة مع ضيق في الصدر.

كان تامر مستبشرا لأنه سيرى جيفنك ومتضايقا من قرب ذلك الرجل دون أن يعرف السبب.

أخذ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث والرجل الطويل ينظر إلى ساعة يده باستمرار.. وعند التاسعة صباحا بالتحديد خرجت الصبايا من كل حذب لتملأن تلك الأرضية الرخامية الصغيرة.. كأنهن مدعوات مسبقا لحفلة ما، كان ذلك عجيبا بالنسبة لتامر فدقة التوقيت تثير الشكوك.

ويبدأ الرقص دون مقدمات كأمطار تشرين الخريفية التي تتساقط بغزارة في يوم صحو.

لم يمر وقت طويل قبل أن يلتفّ حول الصبايا بعض السّواح للاستمتاع برقصهن.. بينما كان تامر يعيد تقليب بصره في وجوههن مرارا بحثا عن فاتنته ولكن يبدو أنه لا أثر لها.

التفت إلى ذلك الرجل الغريب ينظر إليه علّه يجد جوابا في ملامح وجهه عن سر تخلفها.. ليقع بصره على بطاقة تتدلى من عنقه بها ختم لسلطة رسمية كتب عليها مسؤول في الحزب عن مشروع الجمال والتمدن.. وازدادت حينها شكوك تامر.

لا بل أصبحت في ذهنه حقيقة مرّة، فالصبايا مرغّيات ليس
إلا.. والرقص منظم وليس عفويا كما يحاول الرجل الطويل
إظهار ذلك.

تغيّر وجه تامر لأجل تلك الصبايا المسلمات المرغّيات على
الانحراف وشعر بانقباض شديد في صدره يشبه مرارة الفضيحة
بعد الخيانة، فقد تذكّر أنه شارك في إرغام جيفنك على
الرقص.. والجميع لحظتها كان يمرح ويصفق ويرقص.

لم يعد تامر يريد أن يراها لأجله بل لأجلها ولأجل تقديم
المساعدة.. وقبل كل ذلك ليعتذر إليها عن سوء فعله وسوء ظنه
بها.

بدأ يعرف سرّ شعوره اتجاهها ووجه الشبه بينها وبين أخته.

سأل تامر ذلك الرجل الغريب عن جيفنك ولكنه لم يجبه.. ربما
لأن ملامح وجه تامر فضحت غضبه لذلك قال مراوغا.

- لا أدري إنها تأتي لترقص متى شاءت هي ذلك.

أراد تامر لحظتها أن يضربه ولكنه يعلم جيدا أن الشرطة لن تتساهل معه هذه المرة.. لذلك مد يده ليُخرج ورقتين نقديتين من جيبه ودسّهما في يد ذلك الرجل.

ابتسم الرجل ابتسامة مريبة وهو يُخفي النقود في جيبه قائلا:

- جيفنك ستأتي بعد ثمانٍ وعشرين يوما لترقص هنا.

- ثمانٌ وعشرون يوما! لا يمكنني أن أنتظر كل ذلك الوقت.. لدي ترخيص بالبقاء في الإقليم خمسة عشر يوما فقط وبقي منها تسعة أيام.

سأل تامر ذلك الرجل مرة أخرى إذا كان بإمكانه أن يلتقيها قبل ذلك اليوم إلا أنه لم يجبه.. ليمد تامر يده مرة أخرى لجيبه ويدفع إليه بما بقي عنده من نقود.. لحظتها أخرج ذلك الرجل كتابا صغيرا من جيب معطفه وأخذ يُقَلِّب الأوراق قبل أن يدوّن على قصاصة صغيرة عنوان جيفنك وناولها إيّاها.

عاد تامر إلى الفندق خائبا متثاقل الخطى إلا أنه لم يكن حزينا فعلى الأقل لم يتم اعتقاله ذلك اليوم.

وربما كان يشعر بنوع من الغبطة وهو يحمل تلك القصاصة وذلك العنوان الذي سيجعله يلتقي ثانية بامرأة يريد أن يراها بإلحاح ولو بعد حين.. والنقود التي دفعها لا تساوي شيئاً أمام الغرق في أمواج هادئةٍ من زرقة عينيها.

لكن قبل أن يزورها يجب عليه المجازفة أكثر والبحث عن تاجر الأعضاء البشرية والذي وعد بتوفير كلية لأخيه ب 150 ألف دولار فقط.

وبعد ذلك يمكن أن يفرغ في آخر يومين له في الإقليم للبحث عن جيفتك.. وربما البحث عن ذاته في ملامح وجهها وعن هويته في عفتها.

المشهد السابع

عندما يتسخ الفكر تزعجه الطهارة.

اليوم يوم الجمعة وهو يوم مبارك عند مسلمي الأويغور.. لذلك هم يفضلون هذا اليوم لبدأ أي عمل ولإقامة جميع أفراحهم تبرّكا به.

كانت أم رحمة يومها سعيدة تنتقل بين غرف بيتها الصغير بنشاط غير معهود.

تذهب للمطبخ حيناً لتتفقد أحلى الأطباق التي كانت تُعدها.. وأنفقت لأجل شراء مستلزماتها مصروف العائلة كاملاً، ثم تعود على عجل لوسط البيت أو لغرفة الضيافة لترتبها للمرة الثالثة أو الرابعة، هي لا تذكر من فرط سعادتها كم مرّة رتّبها.. ثم ترجع لغرفة رحمة لتطلب منها شيئاً لم تكن قد طلبته منها من قبل.

- رحمة ارتدي أجمل ما لديك.. رُشّي على جسدك أطيب ما تملكين من عطر ولا تنسي مساحيق التجميل.

الأم كانت تعلم أن ابنتها ليست في حاجة لتلك المساحيق ولكنها أرادت أن تُضفي مزيداً من النظارة على وجه ابنتها العبوس صباح ذلك اليوم.

هي تريد أن يغلب الجمال عندها حزنها.. لكي لا يعرف حبيب الله أنها غير راغبة في الزواج منه، وربما لتخفي المساحيق آثار الكدمات على جبينها؟

تذكّرت الأم حينها كيف عادة ابنتها رحمة إلى البيت آخر مرة من العمل مرهقة الجسد والروح.. مجروحة الجبين والشفتين والفؤاد، ترجّتها يومها أن تخبرها بالذي حدث لها لكنها لم تقل شيئاً غير أنها تريد أن تتزوج حبيب الله.. ثم أسرع لغرفتها وأغلقت الباب.

شرد ذهن الأم وهي تتذكر كيف حاولت مراراً أن تعرف كل الذي حدث لابنتها ولعدة أيام.. ولكن رحمة فضّلت السكوت كما فضّلت الأم أن تُخفي ذلك عن موجان.. خوفاً على صحته وخوفاً من أن تغيّر رحمة رأيها في ابن عمها.

- أمي.. أمي.. فيما تفكرين؟

لتنبيه الأم إلى أن خواطرها جالت بعيدا والقدور على النار والطعام يكاد ينضج.. لتسرع صوب المطبخ لوضع آخر اللمسات على مختلف الأطباق.

لم يطل الوقت حتى حضر الضيوف وامتلأت أرجاء البيت سعادة والجميع في انتظار العروس لتطل كهلال العيد الذي يرقبه الجميع.. لكن رحمة لم تكن مجرد هلال بل البدر يوم التمام.

خرجت وهي ترتدي فستانا طويلا زاهي الألوان وبأكمام واسعة بها رسومات من التراث الأويغوري والإندونيسي.

تم إعداد قماش ذلك الفستان بطريقة تسمى الباتيك.. وهي تقنية للصباغة التقليدية تعتمد على شمع النحل لإظهار الرسومات الأجل والأكثر تعقيدا.

ذلك الفستان هو أغلى ما تملك رحمة الآن.. وهو هدية أمها الوحيدة ليومها هذا.. وهو فستان توارثته نساء العائلة.. وأخفته الأم جميلة بإحكام ولزمن طويل ليس لتُرفّ به ابنتها وحسب

ولكن لأن الحزب قد يرى الفستان الذي يرمز لقومية الأويغور تطرفا إلى حد اعتباره سلاحا بيدي الإرهابيين.

دخلت رحمة إلى غرفة الضيافة تمشي على استحياء، وكان الحياء حُلْيَها وحده.. فلم تكن أناملها قد عرفت ذهباً ولا فضة من قبل وأمها باعت جميع حلّيها كغيرها من نساء شينجيانغ.. فأغلب رجال الأويغور قتلوا أو سجنوا ومن حالفه الحظ منهم وُقِفَ عن العمل .

عانقت رحمة الحاضرات من الضيوف وألقت السلام على البقية.. جلست على سجادةٍ أحمرٍ مفروشٍ على الأرض وهي ترفع طرف رداءها قليلا لتستوي جالسة.. وأمسكت باليد الأخرى إكليل زُهورِ البادام لكي لا يقع من فوق رأسها.

ليترك حينها جميع الحاضرين الكراسي والأسيرة وينزلوا للجلوس على السجاد أيضا.

جلس موجان وحبیب الله وتوسطهما رجل طاعن في السن ليكون إماما، اقتربت رحمة قليلا لتكون مُقابِلة لابن عمها وأسندت ركبتيها إلى بعضهما ووضعَت كفيها على فخذيها وأحنت

رأسها حياء.. ولتخفي شيئاً من حزنها، والتفت جميع الحاضرين حولهم لحضور عقد القران والخطبة أيضا في يوم واحد.

الخوف عند الأويغور جعلهم يتعجلون في مراسيم الزواج ويتخلّون عن كثير من عاداتهم.

وضع حبيب الله على طاولة عن يمينه مخطوطا من القرآن الكريم كان قد كتبه موجان بيده قبل سنين طويلة وأهداه لأخيه الأكبر يوسف وهو بدوره قدمه لابنه واليوم جاء حبيب الله يخطب ابنة عمه وذلك المخطوط جزء من المهر وجزء من الوفاء، وما بينهم من قرابة الدين أشد عندهم من قرابة الدم والنسب.

قرأ الإمام شيئاً من القرآن بصوت خافت ثم سأل بعدها حبيب الله إن كان راض عن الزواج من رحمة أم لا.. ليجيبه بكل سعادة وبصوت خافت أيضا:

- نعم قبلت ورضيت.

ويلتفت لرحمة ليعيد عليها السؤال وبنفس نبرة الصوت:

- رحمة هل تقبلين حبيب الله زوجا لك؟

وقبل أن تجيب رحمة.. دُكَّ باب البيت بقوة ليقع على الأرض
واندفع حينها بعض رجال الشرطة داخل البيت.. ليصرخ كل من
كان حاضرا من هول الصدمة قبل أن يسكن الجميع دون
حراك.. بينما وقف الضابط لي عند منفذ الباب يُمعن النظر
إليهم.

لم يخرج لي في مهمة رسمية بل لم يكن يعرف بالتحديد سبب
قدومه لبيت رحمة يومها، أو ربما هو يعرف ولا يريد أن يعترف
لنفسه بذلك.

لو كان يريد تأديب المتمردين من الأويغور لأحضر معه موكبا
كبيرا من العربات المدرعة وعشرات رجال الشرطة.

كان واقفا عند الباب مع بعض مرافقيه يستمع لتلك التتمتات
دون أن يدري ما الذي أزعجه ليأمر فجأة بدك الباب الخشبي
بدل القرع عليه، هل هي تلك الآيات التي يُمنع أن تتلى في
شينجيانغ؟ أم أنه ذلك السؤال الذي طرحه الإمام على رحمة
وخشي لي أن تجيب عنه؟

توسط الضابط لي غرفة الضيافة والجميع مذهولون لم يتحرك أي أحد منهم من مكانه من هول ذلك الموقف الرهيب.

الوحيد الذي كان يتحرك بهدوء هولي.. كان يريد أن يقترب أكثر ليتوسط الجميع وليُشبع فضوله بالنظر إلى رحمة فهي اليوم أجمل، فالفستان الذي ترتديه ليس واسعاً كما اعتادت أن تلبس حين تخرج للعمل بل كان على مقاسها تماماً وزاهي الألوان أيضاً.

الكحل زين مقلتها ولبسات خفيفة من المساحيق أضفت مزيداً من الهاء على وجهها، حتى أثار تلك الكدمات اختفت.

بدى له أنها المرة الأولى التي يراها فيها.. ربما لأنه يراها بخمار غطى كل شعرها، هي اليوم ليست مضطرة لتضع على رأسها ذلك المنديل الصغير.. وللمرة الأولى أيضاً لم يبدو للضابط لي أن الخمار مظهر من مظاهر التطرف.

رغم كل ذلك لم يسمح الضابط لجمال رحمة هذه المرة بأن يسلبه عقله كاملاً فهو الآن أمام عائلة متمردة وعليه أن يتعامل معهم بحزم.. على الأقل لكي لا يضعف أمام جنوده.

فعائلة من الأويغور تملك مصحفا وسجادا للصلاة والمرأة عندهم ترتدي الخمار والزواج يكون بحضور رجل الدين ولا خُمور ولا سجائر عندهم.. يجب أن يعاقب الجميع بالسجن لعشرات السنين ودون محاكمة فهذه آراء دينية حادة وأفكار غير صحيحة سياسيا.. هكذا يقول الحزب.

فقال لي مستهزئا وهو يمد يده لذلك المخطوط من القرآن الكريم ليمزق أوراقه ويلقي به على الأرض:

- أوووو.. عُرس جيفتك اليوم.. أليس كذلك؟

يناديهما باسمها الرسمي وليس بالاسم الذي تُنادى به داخل البيت وهو أحب الأسماء إليها.

أخذ حبيب الله يُلملم تلك الأوراق المقدسة والمتناثرة ليُجن جنون لي ويأمر حينها بجرّه إلى العربة المدرعة ومعه موجان وذلك الشيخ الذي كان يتلو القرآن.

كان لي يريد أن يعتقل الجميع ولكن لا يمكنه فعل ذلك فالعربة المدرعة لن تتحمل أكثر من ثلاثة معتقلين.

تقدم الجنود بقوة لاعتقال المتمردين ليرتفع الصراخ وتتطاير
الأطباق التي تعبت الأم في إعدادها.. وتتساقط بعدها حبات الأرز
البخاري على السجاد الأحمر وفي كل أرجاء تلك الغرفة.. وحشوة
طبقي المنتوا واليغميش من لحم مفروم وبصل خرجت من تحت
أرجل رجال الشرطة.

وقف الجميع يترجون لي بأن يعفو عنهم في الوقت الذي كان فيه
لي منشغلا بتناول حبات من حلوى اللوز أو التتماج كما يسميها
الأويغور فهو الطبق الوحيد الذي لم يقع على الأرض.. ليخرج
بعدها من البيت ويركب العربة المدرعة دون أن يأبه لرجاء أي
أحد منهم.

في تلك اللحظة بالذات وصل تامر إلى بيت جيفنك بعد طول
عناء وهو يسأل عن العنوان الذي أعطاه إياه ذلك الرجل
الغريب.

خرجت جيفنك من البيت مسرعة حافية القدمين صوب تلك
العربة، تسبقها آهاتها وتتخلف عنها زهور البادام التي أخذت
تتساقط من على رأسها.

أمسكت مقبض باب المركبة، ترجت لي بأن يطلق صراح والدها الرجل الكبير المريض والدموع تسيل على خديها، أقسمت عليه بإله لا يؤمن بوجوده وبكل ما أوتيت امرأة من قوة في ضعفها.

اقترب تامر أكثر فهو غير مصدق للذي يراه.. إنها جيفنك الفتاة الراقصة التي تُقاسم أخته عطرها وملامحها في مخيلته، أسرع نحوها ليعرف ما الذي يحدث معها.

جاء ليعتذر إليها و ليعرف سرها عله يستطيع تقديم المساعدة.. ولذلك أحضر معه الكثير من المال.

بدأت المركبة بالسير إلى الخلف بسرعة وجيفنك لا تزال متمسكة بمقبض الباب لتتعثر قدماها وتقع بين ذراعي تامر.

نظر إليها وهي بين ذراعيه دمية من غير حراك دون أن يملك القدرة على أن يُزيح بصره عنها وقد زادها لباسها المُحتشم جمالا.. وقبل أن يرفع جسدها لتقوم واقفة، وقبل أن يعتذر إليها أو يقول لها أي شيء توقفت المركبة فجأة وألقى الجنود بموجان أرضا وأخذوا تامر بدلا عنه.

تلك كانت تعليمات لي وسارت المركبة بسرعة جنونية صوب مركز الشرطة.

شعرتي وهو يطلق سراح موجان بأن جيفنك جعلته يضعف، حاول اقناع نفسه بأن ذلك لم يحدث فهو ترك رجلا واعتقل آخر.. لكنه لم يقتنع بذلك ولم يفهم سرّ السعادة المريبة التي وقرت في قلبه وقد اعتقل خطيب رحمة وذلك السائح الذي يحشر أنفه في كل شيء، ربما يكفي ذلك السائح إنما أن جيفنك وقعت بين ذراعيه، ذلك ذنب كافٍ ليسجن طويلا.

انكبّت رحمة على والدها تقبل رأسه وسارع كل من في البيت للاطمئنان على موجان قبل أن يلوذ الجميع بالفرار إلى بيوتهم فلي قد يعود في أي لحظة لاعتقال المتطرفين.

الوحيدة التي لم تفرّ هي أم حبيب الله والتي سارعت الخطى صوب مركز الشرطة لتلحق ولدها الذي فُجعت فيه يوم فرحه.

أم رحمة كانت تندب حظها أيضا وتبكي بحرقة وهي تقول:

- رحمة كيف عرف الضابط اسمك؟ وما الذي حدث معك في
آخر يوم عمل لك؟

كانت رحمة تريد من أمها أن تمهلها قليلا من الوقت على الأقل حتى تخلوها.. فهي لا تريد أن تقول أنها اعتقلت مرارا وضربت وأرغمت على الرقص.. وأنها خائفة فقد يتم إرغامها على مواصلة الرقص حتى بعد تركها للعمل.. ولكن الأم أرغمتها على قول كل شيء وأمام موجان أيضا.

لم تكن رحمة لترقص في الشارع لولا مرض والدها، كان في انتظار الدواء وكانت تعلم أنها إن رفضت الرقص في الشارع فلن تحصل على مرتبها الشهري الزهيد، ومبالغتها في الرقص مع السيّاح يكسبها راتبا أعلى وثقة الحزب أيضا.

كانت تلك أقصى عقوبة فُرضت عليها ولكن لم يكن أمامها خيار آخر فتنازلت عن شيء من حياؤها لتمنح الحياة لوالدها.

في الأخير تركت العمل فهناك أشياء كثيرة لم تخسرهما بعد، على الأقل جسدها لازال ملكا لها وهي لم تُستعبد في الحانات بعد ولم تدخل معسكرات إعادة التثقيف أيضا.

أغعي على موجان من شدة الصدمة.. وهو الذي ضعف جسده وفقد عمله بتركه للكتابة على الألواح وفقد ماله وفقد ولده

حين أرسله إلى الأزهر ليتعلم.. واليوم يفقد شيئاً من شرفه
وابنته تعترف أنها أرغمت على الرقص في الشارع.

المشهد الثامن

معسكرات إعادة التثقيف.. جريمة ضد الإنسانية.

ينادى أحد ضباط معسكرٍ من معسكرات إعادة التثقيف على
حارس إحدى الزنانات مستهزأً:

- افتح الباب لدينا متربص جديد.

يفتح الحارس الباب مبتسماً وهو يؤدي التحية العسكرية.. ليلقي
الجنود حينها بتامر على أرضية تلك الزنانة.

مدّ تامر يده ليفرك عينيه فقد كانتا معصوبتين منذ أن أُخرج
من مركز الشرطة باتجاه هذه المعسكرات.. وهو يشعر أنهما
تؤلمان وبالكد استطاع أن يفتحهما فالأضواء شديدة في تلك
الزنانة المقرفة.

جلس على ركبتيه مستنداً على يده اليمنى وهو يسد أنفه
بأصابع اليد الأخرى وأخذ ينظر إلى أرجاء تلك الزنانة المكتظة

عن آخرها.. أو ذلك القفص الصغير الذي لا يمكن لأي أحد أن يقف فيه دون أن يرتطم رأسه بالسقف.

نظر في وجوه جميع السجناء، الحيرة والبؤس باديان على وجوههم الشاحبة.. والكثير منهم كان يحك جلده المتقرح ويبعد عن رأسه القمل.

لم يتحرك أي أحد منهم عند رؤية تامر ولم يقل أي منهم كلمة واحدة كأنه لم يحدث شيء واكتفى الجميع بالنظر إليه مع بعض التمتعات فهو يبدو غريبا.. ملامح وجهه تبين أنه ليس من شينجيانغ.

فُتح باب الزنانة مجددا ليتتبع حينها السجناء صوت صريها لمعرفة من يكون السجين الموالي.. ولكن ليس ذلك الذي حدث فقد دخل الجنود بقوة إلى الزنانة لاقتياد أحد النزلاء للعقاب.

بينت إحدى كاميرات المراقبة أن هذا السجين ظلّ جالسا ودون حراك لأكثر من دقيقتين، دون أن يكلم أحدا ما، دون أن يلتفت ودون أن يغني أيضا وذلك أمر يُعاقب عليه في هذا السجن.

الشيء الذي أدهش تامر أن ذلك السجين كان يُجرّ ويُضرب إلا أنه لم يكن يصرخ ولم يكن يبكي.. بل ظل ساكنا حتى فرغ الجنود منه وألقوا به على أرضية الزنزانة خائر القوى.. فقد اعتاد الضرب والجرّ وقلبه كان متحجرا تماما.

وقلوب بقية السجناء ليست أفضل حالا من قلبه فلا أحد منهم اقترب من ذلك السجين للاطمئنان عليه أو لمواساته أو لرفع جسده عن الأرض أو لمسح الدم عن وجهه، لا أحد اقترب منه كأن شيئا لم يحدث.

شعر تامر بتعب شديد وافترش حينها الأرض وتوسد ذراعه وأغمض عينيه لبعض الوقت.. وإذا به يسمع تمتمات ما.. إنه صوت أقرب سجين، أمعن السمع جيدا وإذا بالصوت مألوف.. فالحروف عربية.. هكذا بدت له ودون أن يفتح عينيه واصل الاستماع.. يبدو أن الرجل يقرأ فاتحة الكتابة وآيات أخرى قال بعدها.

- الله أكبر وسبحان ربي العظيم ثلاثا.

وبصوت خافت جدا ذكره بصوت أمه عند صلاتها السرية.

فتح تامر عينيه وقام فزعا حين تذكر أمه وفزع ذلك الرجل الذي كان يصلي متكأ أشد.. فقد أحس بخوف شديد من تامر ليبدأ حينها بالغناء.

وحمد بعد ذلك الحزب وشكره وأثنى عليه وغنى لبقائه وصفق لذلك الجميع.

شعر تامر بالذهول مما يحدث معه يبدوا أنهم مجانيين، نادى الحراس مرار:

- أخرجوني من هنا أنا لم أفعل شيئا.. أنا سائح سعودي.. يجب أن أخرج من هذا الإقليم.. بقيت اثنتي عشر ساعة على الترخيص الذي حصلت عليه.

لكن لا أحد كان يرد عليه.. ليعود مجددا للنوم ولم يستفق إلا على جرسٍ شبيه بأجراس المدارس وأشد حدة من صافرات الإنذار.

لا يدري تامر كم من الوقت مرّ وهو نائم، تساءل:

- هل هو الصباح أم لا؟

لم يكن يدري.. فالأضواء ظلّت مشتعلة طوال الوقت، ليقوم
الجميع فجأة للغناء.

انهضوا يا من ترفضون أن تكونوا عبيدا..

من دمنا من لحمنا نبني لنا حزاما جديدا..

أمّتنا اليوم تواجه خطرا شديدا..

من كل صدر يتعالى زئير ومن فمنا نشيد..

انهضوا.. انهضوا.. انهضوا..

يا ملايين الشعب بقلب واحد كالحديد.

وارتفع صدى ذلك النشيد وذلك الغناء ليعمّ أرجاء السجن
بأكمله، حاول تامر إخراج رأسه من بين القضبان الحديدية
متتبعا صدى الأصوات الآتية من كل صوب علّه يرى شيئا
مختلفا عما يوجد في زنزانته المقرفة.. غير أنه لم يشاهد سوى
سلاسل من الحُجرات الصغيرة فوق بعضها البعض بها أعداد لا
حصر لها من البشر.. كأنهم دجاج في أقفاص نتنة موجهة
للمذبح.

لتشكل تلك الأقفاص بنايات ضخمة صُمِّمت في أقبية عملاقة تحت الأرض.

توقف الغناء فجأة كما بدأ فجأة وقُدِّم الطعام، صحنون من حساء الخضروقليل من الخبز، مد تامر يده بسرعة لذلك الخبز ليقضم منه قضمة ثم أخذ يدني من شفثيه صحن الحساء ذاك ليحسوا منه لكنه أبعد به سرعة فرائحته سيئة للغاية.. لكن لم يكن أمامه خيار أخريجب عليه أن يأكل ليبقى حيا.

احتسى القليل منه ليضعه بعد ذلك جانبا فطعمه شبيه برائحته وواصل قضم الخبز.. لينتبه حينها إلى أنه الوحيد الذي كان يتناول الطعام فلا أحد مد يده ليأكل وإن بدت على أجسادهم أمارات الجوع والتعب.

سأل أحدهم مستغريا:

- ألا تأكل؟

لكنه لم يرد على سؤاله.. وضل تامر حائرا كيف يمكنهم البقاء دون طعام.. حتى وإن كان سيئا فلا بد من تناوله.. ولا بد أنهم اعتادوا طعمه.

عمّ السكون مجددا لا أحد يتكلم إلا همسا.. ولا صوت يعلو على
قرع أقدام الجنود وهم يعبرون الممرات الضيقة بين تلك
الأقفاص.

وقف تامر عند قضبان الزنزانة ونادى على أحد الحراس:

- أريد أن أذهب إلى الحمام.

كرّرها مرارا قبل أن يُفتح الباب ويُقتاد إلى الحمام كما طلب.

نزل سلالم حديدية طويلة حتى وصل إلى قاعة واسعة الأرجاء
بها عدد كبير من الغرف الزجاجية الصغيرة أو الكابينات.

اقترب أكثر ليشيح بوجهه فهي مراحيض زجاجية صغيرة ومقرفة
جدا وملاصقة لبعضها البعض ولا أبواب لها، ليُدفع تامر إلى
إحدى تلك الكابينات بالقوة.

نظر عند قدميه وإذا بأرضيتها ملطخة بالفضلات لا ماء فيها ولا
أي شيء للنظافة.

التفت يمينا وشمالا وإذا برجال من الأويغور عراة ويملئون تلك الكابينات.. ويد كل واحد منهم والأرضية الزجاجية هي البديل عن الماء والورق.. وهي سبيل الطهارة الوحيد.

خرج تامر مسرعا فالذي رآه لا يمكن تصديقه والرائحة الكريهة أسوء بكثير من رائحة زنزانته، مد يده ليس ليسد أنفه أو بصره ولكن ليسد فمه وقد شعر برغبة ملحة في التقيؤ ولكن الجندي رده بقوة قائلا:

- هيا افعلها وخلصني.. افعلها لدي الكثير من المشاغل.

بالكاد كانت قدما تامر تحملاه من هول الذي رآه، كيف يمكن له أن يفعل ذلك هنا؟ تساءل حينها:

- هل هذا هو سبب عدم تناول السجناء للطعام أم أن هناك سببا آخر يمنعهم من الأكل؟

تمنى لحظتها أن يبكي ولكنه لم يكن يستطيع فعل ذلك، العرق كان يتصبب من على جبينه لشدة الحرج الذي هو فيه ولشدة القدرة التي أصبح جزءا منها.

كيف ينزع ثيابه؟ كيف يفعلها على مرأى الجميع؟ كيف يلبس ثيابه بعدها؟ أين الماء؟ وكيف يمكنه بعد ذلك أن ينظر إلى يديه أو يقرّبهما إلى جسده وربما فمه؟

جُرّ تامر إلى الزنزانة مرة أخرى ليمرّ على حجرات واسعة.. أدخل إليها مئات من السجناء في تلك اللحظة بالذات وأخذ الجنود يطلبون منهم البكاء.

- هيا ابكوا يمكنكم الآن فعل ذلك.

لكن لا أحد من السجناء كان يملك القدرة أو الرغبة في البكاء وإن تظاهر أولئك السجناء بذلك، فالتباكي لحظتها هو السبيل لتجنب التعرض للتعنيف.

الوحيد الذي استطاع البكاء هو تامر، فقد بكى بحرقّة على كل الذي حدث له في هذا الإقليم وفي هذه المعسكرات.

بكى على أولئك المجانين الذين يقاسمهم الزنزانة ذاتها، بكى ليخفف عن نفسه شيئاً ما من الألم.. ولكنه لم يستطع أن يواصل البكاء طويلاً لأن الجنود منعه بقوة فلا أحد طلب منه أن يبكي ولا سمح له أحد بذلك.

تساءل تامر حينها:

- لما يُطلب البكاء إذن؟ أم أنه مسموح به لفئة دون أخرى في هذه المعسكرات؟ ولما يُمنع هو بالذات من فعل ذلك؟ وأغني عليه حينها من هول الصدمة ومن شدة الضرب على البكاء غير المرخص.

المشهد التاسع

في شينجيانغ قد يكون الضيف جاسوسا وقد
يستقبلك هو في بيتك.

نفدت مدخرات عائلة موجان تماما فأخر مرتب لجيفنك تم
صرفه في الإعداد لخطبتها والآن طردت من العمل والخطبة لم
تكتمل وحبیب الله اعتقل.

فتحت الأم ثلاثتها الصغيرة مرارا وقلّبت أغراض مطبخها لأكثر
من مرّة عساها تجد بقايا طعام من خضروات أو أرز أو غيرهما،
لكنها لم تعثر على شيء يصلح لإعداد وجبة ولو لفرد واحد.

أرادت أن تخبر موجان بأنها لم تجد ما تطهوه له ولا بنتهما ولكن
ماذا عساه يفعل، لذلك أخفت الأمر عنه وعن ابنتهما أيضا،
فهي لا تريد أن تدفع بها إلى العمل مجددا.

خرجت من البيت دون أن تخبر أحدا بوجهتها، دقت أبواب
الجيران بابا بعد باب، طلبت القليل من الطعام ولكن لم يكن
لدى أي منهم طعام يمكن التفضل به على الآخرين، فأغلب

رجال الأويغور زُجَّ بهم في معسكرات إعادة التثقيف والجميع
أصابهم الفقر.

الأم لم تستسلم بسهولة بل واصلت البحث عن الطعام ووصلت
إلى بيوت بعيدة لا تعرف ساكنيها وترجت الجميع ولكن دون
جدوى.

عادت أم جيفنك بعد ساعة من البحث خائبة وقبل أن تصل
إلى البيت بقليل صادفت رجلا أنيقا بجوار بيتها يرتدي بدلة
رسمية ووجهه لم يكن غريبا بالنسبة إليها.. ولكنها لا تدري أين
رأته من قبل.

سألها:

- إلى أين تذهبين يا أمي؟

لكنها ارتابت منه فرغم أنه سألها بلغة أويغورية إلا أن لهجته
كانت غريبة لذلك لم ترد على سؤاله، وهو لم يلقي السلام
أيضا.. ثم تذكرت أن المسلمين الأويغور أيضا توقفوا عن إلقاء
تلك التحية، حينها سألته بدل أن تجيبه:

- ولما تسأل عني؟

فأجابها:

- الحقيقة أنا رجل من مقاطعة هوانان ولدي عمل في توربان ولا مكان لي آوي إليه فجئت للإقامة في بيتكم فقط، أم.. أم أن لديك مانع؟

لم ترد الأم فقد أصابها الذهول وبقيت ساكنة دون حراك.. لم تستقبل من قبل ضيف فوق العادة وتعلم يقينا أنه لا يمكنها أن تردده.

ليستطرد قائلاً بعد برهة:

- بيت الصيني بيت للجميع كما تعلمين يا أمي.. أليس كذلك؟

اعتذرت الأم بأدب دون أن تخالفه الرأي.. وأخبرته أنها لا تملك أي طعام في البيت وأن عليه أن يختار بيتا آخر يستطيع استقبال الضيوف.

أشارت إليه ببعض البيوت التي تعلم يقينا أنهم يملكون الكثير من الطعام وإن بخلوا به عليها فلن يبخلوا به على رجل من

الهان أوصى القانون بإكرامه، لكن ذلك الرجل كان مصمما على أن يسكن في بيتها فهو يعرف ما يريد، لذلك قال لها:

- إن كان الأمر كما تقولين فسأشتري بعض المستلزمات وأعود.

لم تجد الأم ما تقوله له وقد غادر مسرعا ولم تدري ما ذا يجب عليها فعله إلا أن تدخل إلى البيت مسرعة وهي تلهث، هرعت جيفنك إليها وقد رأت الرعب في وجهها وقبل أن تلتقط الأم جميلة أنفاسها قالت:

- رجل من الهان سينزل ضيفا عندنا.

وقع الخبر على جيفنك وموجان كالصاعقة ليبدأ الجميع تلقائيا بالتخلص من كل مظاهر التدين والتطرف معا.. ولم يناقش أحد فكرة رفض استقبال هذا الضيف فالقانون واضح.

يحق لأي فرد من الهان العيش في أي بيت من بيوت الأويغور للفترة التي يراها مناسبة.

القانون واضح والعقوبة مشددة.

سجاد للصلاة ألقى في المذيلة.. والمصحف أخفي في مكان قدر لا يمكن الوصول إليه، وخمار جيفنك الطويل تم تمزيقه وقميص موجان الذي يرتديه لأداء الصلاة تم رميه بعيدا مع جميع الألبسة التي يمكن أن تشير للإسلام أو لثقافة غير ثقافة الهان.

مدت جيفنك يدها للوحة فنية معلقة على جدار وسط البيت، لم يكن موجان يسمح لأي أحد بأن يلمسها.. كان يلمعها دوما بنفسه ولسنتين طويلة، هي أعزل لوحة يملكها.. فقد رسم حروفها والده قبل أربعين سنة، وهي عبارة عن آيات كريمة بلسان عربي مبين.

أرادت جيفنك أن تتخلص منها ولكنها لم تملك الجرأة على فعل ذلك ووالدها ينظر إليها.

ليفاجئها قائلاً:

- رحمة أنزلها.

أنزلتها كما قال لكنها لم تجد أين تخفيها.. ليفاجئها والدها ثانية حينها وهو يغالب دموعه قائلاً:

- تخلصي منها بسرعة.

قامت رحمة بتكسير خشبها برفق وهي غير مصدقة، كيف تنازل والدها عن تلك اللوحة التي كانت إرثه الوحيد وابنته الثانية؟

مزقت جلد اللوحة الفاخر ومع بقايا ذلك الجلد تذكر الجميع القبو وما فيه من بقايا لوحات فنية لينزلوا بسرعة لتطهيره من كل مظاهر التطرف الديني قبل أن يصل الضيف غير المرغوب فيه.

وصل الرجل وفي يده الكثير من الأغراض، أراد أن يدق الباب إلا أن الباب يبدو مهلهلاً كأن أحد ما أسقطه أرضاً، تذكر شيئاً ما.. ابتسم ودفع الباب برفق ودخل إلى وسط البيت وهو يلقي التحية دون أن يرد عليه أحد.

جلس على كرسي في صالة الضيافة.. وعلى طاولة مجاورة وضع الخضروات والفواكه واللحم وقنينة كبيرة من النبيذ الفاخر ورفع صوته بالتحية للمرة الثانية عساه يجد من يرد عليه تحيته.

سمعت الأم صوته وصعدت السلالم على عجل ورحمة خلفها لتجد الرجل وسط البيت كأنه مالكة وهم الضيوف، شعرت بالغضب فهو ضيف وقح لم ينتظر عند الباب بل دخل دون استئذان، أرادت أن توبخه لولا أن رحمة همست في أذنها قائلة:

- إنه الضابط الذي اعتقل حبيب الله.

شعرت الأم بالخوف وتناست وقاحة الضيف وأخذت ترحب به مرغمة، اقتربت منه وهي تبتسم له لتأمن شره، حينها مد يده لتلك الأكياس ليناولها إليها وهو يطلب منها أن تعد طعاما طيب المذاق.

استلمت كل المشتريات ولكنها لم تملك القدرة على حمل تلك القنينة، أراد الضابط لي بأن يُنمها إلى أنها نسيت الخمر إلا أنه تفاجأ بموجان الرجل الطاعن في السن يقترب منه متكأ على عصاه وهو يلقي التحية وبلغة الماندرين.. ليجلس بجانب لي.

رد لي التحية دون أن يزيح ناظريه عن جيفنك، زحزح موجان كرسيه قليلا ليخفي ابنته خلف ظهره ثم مد يده لقاورة الخمر التي لم يسبق له وأن لمسها وأمررحمة بأن تأخذها إلى المطبخ.

انسحبت رحمة دون أن ترفع بصرها عن الأرض ودون أن يرفع
لي ناظريه عنها وهو يتتبع خطواتها العجولة صوب المطبخ وهي
تتكلف عناء حمل تلك القنينة.

اشتاط موجان غيضا من نظرات لي المريبة لابنته وهمّ بأن
يضرّبه بعصاه إلا أنه تمالك نفسه.. فقد يحفظ شرف ابنته
بالحكمة أكثر مما يستطيع حفظه بالقوة أو بالضرب.. وهو
يعرف غاية الضابط ويعلم ما يريد.

تجاذب الرجلان أطراف الحديث لبعض الوقت ليعم السكون
بعدها طويلا فليس من عادة لي كثرة الكلام وموجان لم يكن
يتقن إلا القليل من اللغة الصينية.

لذلك ظل موجان ساكتا.. ثم أخذ يقلب في ذهنه كلمات وينقي
أفضلها ليطلب من لي أن يطلق سراح ابن أخيه حبيب الله
والذي اعتقل دون ذنب يذكر، وحين سأله ذلك تغيّر مزاجه
تماما وارتسمت على وجه الضابط كل أمارات الغيظ والغضب.

ليسأل موجان لي مرة أخرى عن أي معلومة عن حبيب الله:

- هل هو بصحة جيدة أم لا؟ وأين هو الآن؟

فلا أخبر عنه منذ اعتقل.

قام لي من مكانه منزعجا ليقوم موجان أيضا.. لكن لي قال
ممازحا مزاحا لا يخلوا من الجدية:

- لا عليك أبق مكانك أنا في بيتي.

قال لي ذلك وهو يحدث نفسه بأن هذا العجوز لم يعرف قدره
بعد.. وأن مكانه هو الجحيم مع حبيب الله لولا ضعفه أمام
دموع جيفتك وهي ترجاه أن يترك والدها.

توجّه لي صوب إحدى غرف البيت ليفتحها ويلقي بحقيبته أرضا
ويستلقي على السرير الوحيد في تلك الغرفة دون أن يغلق
الباب.

أسرع موجان إلى المطبخ يستعجل زوجته في إعداد الطعام لعل
هذا الضيف الثقيل يغادر حين يشبع.. وليخبرها أيضا بأن لي
دخل غرفة رحمة.

أرادت رحمة أن تذهب لتعرف ما الذي يفعله في غرفتها إلا أن والدها منعها وعاد لغرفة الضيافة ينتظر الطعام.. ويرقب تصرفات لي.

حين حضر الطعام توجه موجان خلسة صوب غرفة ابنته لينادي على الضيف فوجده يعبث بأغراض ابنته وينظر لإحدى صورها ويشم ثوبا لها.

تنحج موجان وهو يقول:

- الطعام جاهز.

ترك لي كل شيء كان بيده وتوجه لغرفة الضيافة إلا أنه رفض أن يمد يده للطعام قبل أن يحضر بقية أفراد العائلة.

تحجج موجان بأن ابنته وزوجته تناولتا الطعام قبلهما إلا أن لي أصرّ على حضورهما.

- المرأة الصينية تتناول الطعام مع أي رجل محترم.. والمتطرفة وحدها من ترفض فعل ذلك.

هذا ما قاله الضابط لوالد رحمة.

لكن الشيء الذي لم يفهمه لي يومها هو شعوره الغريب وهو يتناول الطعام للمرة الأولى وسط أسرة، رغم أن الطعام لم يكن شهياً المذاق فالأم أعدته على عجل وهي خائفة.. ولكن نفس لي تذوقت شيئاً ما في ذلك الطعام عجز لسانه عن تذوقه.

ربما لأنه كان قريباً من جيفتك والتي يحلو له النظر إليها؟ وربما هناك شيء آخر غير ذلك جعله يستلذ الطعام الذي لم يكن لذيذاً؟

هل هو جو العائلة الذي أعجب به لي؟ هل لأن الزوجة كانت تُأثر زوجها بأفضل ما في الصحن؟ والبنت كانت تسارع إلى مسح أي شيء من الطعام يقع على ثوب والدها، وتقرب له كوب الماء في اللحظة التي كان يريد أن يشرب بالذات، كأنها هي التي كانت تمضغ الطعام بدلاً عنه.

والشيء الذي لم يفهمه موجان وأهله لما أحضر الضيف قنينة الخمر دون أن يحتسي منها ولو القليل؟ طلب من الأم أن تضع له كوباً منها إلا أنه لم يقرب الكوب إلى شفتيه.

تلقى لي مكاملة وغادر مسرعاً وتنفس الجميع الصعداء.

رفعت الأم يديها تحمد الرب على ستره.. وتناولت رحمة وضوؤها
لتقيم الصلاة.. وسجد موجان.. ليتجه بعدها إلى مكب القمامة
لحمل المصحف وإزالة القذارة عنه، ثم قام يللم بقايا لوحة
والده لينظر إليها للمرة الأخيرة.. وتاه حينها بصره في انحناءات
حروفها.

المشهد العاشر

قد لا يكفي لنقض الذات كرسي ومراة وسلاسل
وسوط.

مرت أيام عديدة وتامر لا يزال داخل تلك المعسكرات، لم يتغير شيء كثير إلا أنه لم يعد يشعر بالوحدة فقد أصبح يقاسم النزلاء في تلك الزنزانة نفس التمتعات والجنون أيضا.. وجسده يقاسم أجسادهم التقرحات ذاتها.. ورائحة القذارة مشتركة.

معاملة زملائه في الزنزانة له تغيرت وأصبح الجميع يكلمونه بعد أن اطمئنوا إلى أنه ليس عميلا.. وعرف تامر أن تمتعاتهم تلك كانت خوفا منه وخوفا من أن ينقل تمردهم للحراس.

وعرف أن الصلاة تؤدي في هذا المعسكر سرا و بحركات العيون والشفيتين فقط، وكل شخص يتوقف عن الحركة وعن الكلام لبضع دقائق ترسل كاميرات المراقبة للمركز بيانات تحذيرية.. ويتدخل الجنود حينها لضرب وتأديب المتمردين، لأجل ذلك طوّر السجناء الصلاة لتتماشى مع قوانين معسكرات إعادة التثقيف.

تبدأ الصلاة بالتكبير سرا.. ثم الضحك جهرا.. تليها قراءة الفاتحة سرا.. وبعدها الغناء للحزب جهرا، يتبع ذلك قراءة بعض الآيات مع ضرورة الالتفات يمينا وشمالا وبشكل مستمر إلى أن تنتهي الصلاة.

بهذه الطريقة فقط لن ينتبه السجّانون ولن تستطيع الكاميرات الذكية رصد صلاة مسلمي الأويغور.

عرف تامر أن الأتانية داخل هذا السجن مطلوبة وأن تقديم المساعدة لأي كان يُعرّض صاحبها للضرب المبرح.. فالسجّان هنا يرفض أن يرى الأويغور يدا واحدة، لذلك تقديم المساعدة لشخص ما في خطر داخل هذا المعسكر جريمة.

كما عرف تامر أن الماء سلاح ممنوع في هذا المعسكر.. فقد يستعمله الإرهابيون، والحزب يخاف الوضوء.

لذلك يُقدم القليل من الماء لكل سجين ليبقى جسده رطبا وليستمر حيا، ويُسمح له بقليل من البكاء ساعة كل أسبوع لتبقى روحه حية.. وغير ذلك الماء كما البكاء ممنوع إلا بترخيص.

ولكن تامر لم يعرف بعد لما كل تلك التحاليل التي أجريت له
ولمختلف السجناء منذ دخولهم إلى هذا المعسكر.. ولم يخطر
على بال أي منهم أن الغرض منها تشكيل قاعدة بيانات تجارية،
ولا عرف كل واحد منهم لما كان يجب عليه أن يوقع على وثائق
دون امتلاكه حق الاطلاع على محتواها.

عند كل صباح كان يجب على تامر وعلى كل السجناء أن يغنوا
للحزب ساعتين متواصلتين.

ينزعج السجين الجديد من ترديد تلك الأناشيد في البداية.. لكن
مع مرور الوقت تصبح تلك الأشعار التي ينشدونها مسلية لهم..
بل ربما ملاذا لتفريغ شيء مما تحمله أرواحهم من أثقال
وأحزان.

الحزب ملاذنا لا حياة لنا إن كنا عنه بعيدين

كنا في ضلال قبل أن تفتح على مبادئه العينين

أرواحنا فداء وإيماننا به عن يقين

من غيره لا شيء اسمه الوطن لا شيء اسمه الصين

انتهت ساعتين من الغناء المتواصل لينقل السجناء إلى قاعات ضخمة بها كراس مثبتة على الأرض بإحكام.. ومع كل كرسي سلاسل حديدية لربط كل سجين.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها تامر تلك الكراسي التي تقابلها مرأيا كبيرة.. فقد نُقل في الأيام الماضية بعد حصة الغناء إلى الزنزانة بمفرده وأخذ رفقائه إلى جهات أخرى.

أجلسَ بقوة صباح ذلك اليوم على كرسي حديدي وقيد بالسلاسل.

سأل تامر أحد الجنود:

- لما تفعل معي هذا؟

لكن الجندي لم يجبه، التفت تامر يمينا وشمالا يبحث عن الإجابة في وجوه من حوله وقد دب الرعب في قلبه وارتعدت فرائسه.. فقد تكون هذه الكراسي وسيلة لإعدام السجناء.

ليقول له سجين كان جالسا على كرسي قريب منه:

لا تخف يجب عليك فقط أن تكرر بعض الكلمات مئة مرة
حينها تُفك عنك السلاسل وتنقل إلى الزنزانة.

تساءل تامر متعجبا:

- لما إذن كل هذه السلاسل؟ ولما نُربط بإحكام إن كان الأمر لا
يعدو أن يكون بعض الكلمات التي يجب علينا أن نكررها؟ ألسنا
قد انهمينا قبل برهة فقط من ترديد الأناشيد الطويلة ودون
كراسي.. ودون سلاسل أيضا؟

وكمُلت دهشة تامر حين قال له الجندي قل:

- أنا كنت أصلي وهذا خطأ وكنت أؤمن بوجود الله وهذه خرافة.

لم يستطع تامر أن يقولها فقد ظن للوهلة الأولى أن الجندي
يمازحه لكن الصورة اتضحت عنده جليّا حين انهال الجندي
عليه بالسوط يجلده وهو يقول بنبرة صوت حادة:

- قل أنا كنت أصلي وهذا خطأ وكنت أؤمن بوجود الله وهذه
خرافة.

زال عجب تامر واشتدت دهشته ولكنه لم يقل ما طلب منه قوله.. ليُجلد ثانية وثالثة والجندي بدأ يفقد أعصابه.

تساءل تامر:

- كيف يمكنني أن أقولها؟

وهو الذي بدأ الالتزام بأداء الصلاة ولو بتحريك شفثيه فقط منذ أدخل إلى هذه المعسكرات التي أقيمت خصيصا لحذف الصلاة من أرواح النزلاء.

وقبل ذلك لم يكن تامر يصلي إلا نادرا، يصلي الأيام الأولى من كل رمضان ويؤدي صلاة العيد أحيانا وحين تصرّ عليه أمه أيضا، أو حين يموت أحد أقربائه، في تلك الأوقات فقط يرتفع الوازع الديني عنده فيصلي.

لم يكن تامر ملتزما بالصلاة.. تعرفه الحانات أكثر مما تعرفه المساجد، وخطاه لإشباع نزواته كانت أكثر من خطاه لإرضاء ربه.

هو مسلم لا يصلي ولكنه يحب المصلين، لا يصلي استهتارا وتماطلا ولكنه لا يكفر بالصلاة، هو لا يطيع الله ولكنه لا يجراً على نفي وجوده، لأجل ذلك لم يستطع أن يردد الذي طلب منه. وانهال عليه الجندي بالسوط يعذّبه.. وطال وقت العذاب وتامر متماسك لا يجراً على الرّدة.

كان لا بد على تامر أن يكرّر قول تلك الكلمات وهو ينظر لنفسه في المرأة.. ليُقنع نفسه من الداخل بفحواها، يجب عليه أن يعرف ويستشعر كيانه كله أن مشكلته الوحيدة تكمن في إيمانه بالله.

والجندي الذي كان يضربه يعرف شيئا واحدا فقط الإسلام مرض أيديولوجي لدى الفرد.. وبالتالي هو في حاجة إلى التوعية السياسية لأشهر أو لسنوات حسب استجابته.

للمرة الأولى وجد تامر نفسه يبكي على دينه الذي يُطلب منه تركه بالقوة وقد كان حرا لا يلتزم بتعاليمه، بكى بصوت عالٍ.. واشتد الجلد ليس لأن تامر لم يردد ما طلب منه وحسب ولكن لأن البكاء ممنوع.

يجب عليه أن ينتظر أسبوعا كاملا حتى يُؤذن له بالبكاء ساعة واحدة على كل الذي حدث له.

بعد ساعتين من العذاب على كرسي نقض الذات وغسل المخ..
حملة جنديين ليتم إدخاله على طبيب ليعالجه.. لكن الطبيب
لم يفحص نبضه ولم يضمد جراحه ولم يعطه دواء يخفف ألمه.
اكتفى الطبيب بإعطائه حقنة كبيرة لم يعد بعدها تامر يرغب
في تناول أي طعام على الإطلاق وفقد شهيته تماما.. ولم يعد
يتعجب لما لا يمد السجناء أيديهم للطعام إلا بالقدر الذي
يبقيهم على قيد الحياة.

في مساء ذلك اليوم وحين استفاق تامر أخذ يفكر في سبب
وقوعه في هذه المعسكرات ولم يجد سببا آخر غير طمعه.

- هل كانت الرغبة في الحصول على مزيد من الأموال تستحق
المجازفة؟

يتساءل تامر سرا.

كان يجب عليه أن يتوجه صوب عاصمة الإقليم كما طلبت منه أمه ليدفع 300 ألف دولار مقابل حصول أخيه على كَليّة في مستشفيات مرخصة.

لكن تامر أراد أن يتوصل إلى عصابات تجار الأعضاء البشرية ليدفع نصف المبلغ فقط.. ويحتفظ لنفسه بالباقي ليواصل أسفاره ورحلاته، فأمه لم تعد تدفع له بسخاء كما كانت من قبل.. وأصبحت تريده أن يبقى قريبا منها لفترات أطول خصوصا بعد مرض ابنها الآخر.

نادى تامر لحظتها على الحراس وألحّ عليهم ليقابل أي ضابط في هذا السجن.. كان يريد فقط أن يطلب محاميا ليدافع عنه.. وحين علم الجميع بمقصده لم يعد أي واحد منهم واقفا على قدميه من شدة الضحك.

فهذه معسكرات شبيهة بغابة لا قوانين تحكمها غير القوة والهيمنة والنفوذ.. ومن يقنع السيول الجارفة أو الطوفان أن لا يعبرا.

معسكرات لا توجه فيها لأي سجين تهمة.. ولا يحظى فيها بمحاكمة ولو ظالمة.. ويقبع فيها السجين إلى أن يستجيب للعلاج العنيف.

فالذين استجابوا سريعا للعلاج النفسي في هذه المعسكرات يوجهون للعمل مجانا في مصانع لأجل الوطن.. ليطمئن الوطن أكثر لإخلاصهم.

والأقل تطرفا يُواصل علاجهم نفسيا وجسديا بالضرب والإكراه وبمختلف الأدوية البيولوجية والكيمائية ليصنع منهم مواطنين صالحين.

والأكثر تطرفا والميؤوس من تعافهم يوجهون لمعسكرات أخرى في عاصمة الإقليم ليستخدم الوطن أجسادهم فيما يراه مناسباً.

المشهد الحادي عشر

الحب لا يغير المفاهيم فقط بل حتى المعتقدات.

عاد لي إلى بيت جيفنك ثانية ولكن هذه المرة عاد ليقيم طويلا في ذلك البيت ولم يأت في زيارة قصيرة.

أخذ إجازة من العمل.. فهو لا يريد من أي أحد أن يقطع عليه متعة البقاء في بيت موجان وإن لم يقل ذلك لأي أحد، حتى نفسه كان يحدثها كذبا بأنه جاء في مهمة سرّية ليراقب المتمردين من الأويغور خدمة للوطن وليس بحثا عن متعة ما.

متعةً يجهل سرّها.. كما يجهل كيف لذلك التناقض أن يجتمع داخله؟ فهو يكره المتمردين ويرغب بشدة في البقاء قريبا من متمرده.

وربما مفاهيمه ومسلّماته حول التمرد التي تعلمها في الثكنات العسكرية بدأت تتغير؟

جاء حالما بامرأة تدفعه رغبته السرية والملحة معا في النظر إليها..
وفي أن يكون قريبا منها.. دون رغبة منه في أن يعترف لنفسه بأنه
أحياها.

فالحب شعور يتبعه إقرار وبعده طلب.. وهو رجل عنيف شديد
البطش عزيز النفس، لم يسبق له وأن جرّب معنى الحب
وطلباته كانت دوما أوامر.

يومها دق الباب عند غروب الشمس وحين فُتح الباب كان
موجان هو المبادر بالتحية ورد لي بابتسامة مقتضبة.

حزن الجميع عند رؤيته وعاودهم الخوف مجددا من هذا
الضعيف الجاسوس.. وإن كان خوفهم هذه المرة أقل مما كان
عليه في المرتين السابقتين.. فالنفوس البشرية لها قابلية ما
لتألف كل شيء.. وحتى العفاريث قد تراها يوما ما مسالمة
ومسلية وإن لم تكن كذلك.

أخضّر لي طعاما وفيرا هذه المرة بشكل فضح رغبته السرية في
البقاء طويلا.

هو لم يكن في حاجة لإحضار أي شيء معه، بإمكان أي فرد من الهان (غالبية سكان الصين) الإقامة في أي بيت من بيوت الأويغور (سكان شينجيانغ) واقتسام طعامهم.

بإمكانه أيضا مشاركة السرير الواحد مع من شاء.. لتكون هناك ألفة أكبر بين أبناء الشعب الواحد.. وإن وجد لباسا يناسبه فبإمكانه استعارته دون طلب والقانون واضح.

ومع ذلك لم يستطع لي أن يأتي خاوي اليدين وهو يعلم أن موجان رجل فقير.

حتى لو كان موجان غنياً ربما لم يكن لي ليأتي دون أن يحضر معه شيئاً ما.. فهو يحاول أن يصطنع لنفسه صورة جميلة دون قصد منه.. ودون أن يشعر بأنه يكلف نفسه عناء تمثيل دور هو ليس دوره.

الخوف كان يملأ أرجاء بيت موجان ولكن فسحة ما من الأمل كانت تكبر في نفوس ساكنيه فلن يُعدم الخير من رجل كريم، هكذا بدى لموجان وأهله.

لم يُطل الضابط المكوث في بهو البيت فقد توجّه صوب القبو بعد أن متّع ناظره بوجه جيفنك الصبوح ورمقها بنظرة مريبة.

أراد موجان أن يتبعه إلا أن زوجته أشارت إليه بالبقاء فلا آثار في ذلك القبو لأي جريمة حرّية.. ولا أثر لأي مظهر من مظاهر الإسلام أو الانتماء لأي وطن آخر غير الصين.

وصل لي إلى الأسفل.. المكان مظلم للغاية.

أخرج هاتفه ووجّه ضوءه في أكثر من اتجاه.. وحين وقع بصره على المقبص ضغط عليه لأكثر من مرة ولكن المكان بقي مظلمًا، رفع لي حينها هاتفه عاليًا ليجد العنكبوت وقد نسجت بيتًا لها مكان المصباح.

تساءل وهو يسير بحذر في ذلك القبو:

- كيف ينزل أحدهم إلى هنا دون مصباح ينير المكان؟

ارتطمت حينها رجله بحافة طاولة صغيرة، وجّه ضوء هاتفه نحوها ليجد فوقها محبرة بها القليل من الحبر الزيتي وريشة للرسم وأقلام مذبذبة وأخرى مشطوفة الرأس.

تحسس خشب الطاولة وإذا بطبقة من الشمع تكاد تغطي نصفها.. وفهم حينها لما لم يوضع مصباح في هذا القبو منذ زمن.

لكنه لم يكن يعرف من الفنان الذي يحب الرسم؟ ولما يفضل ضوءاً خافتاً لشمعة على ضوء المصباح الوهاج؟

كما لم يفهم لما لم يعثر على أي لوحة فنية باستثناء بقايا أوراق بيضاء متناثرة.. وبرميل به أوراق محترقة.. أخفى الرماد حروف كلماتها؟

لم يطل الوقت حتى سمع لي قرع نعلٍ يقترب منه.. ليقف موجان أمامه متحاملاً على نفسه ومتكأً على عصاه وهو يقول:

- العشاء سينضج بعد قليل.. يمكننا أن نصعد للأعلى.

حرّك لي راسه وهو يشير لموجان بأن يجلس على الكرسي لأنه يريد أن يسأله عن كل الذي دار في ذهنه عن ذلك القبو وما فيه، فأجاب موجان حيناً وتهرب عن الإجابة أحياناً أخرى.

قال أنه يحب ضوء الشمعة ولم يقل أنه يخاف ضوء المصباح، فهو يكتب آيات كريمة خلصة.. وضوء الشمعة يستر جرمه والمصباح قد يفضحه.

سأله لي:

- أين ألواحك إن لم تكن قد بعثها؟ وإن كنت فعلت ذلك فلما أنت فقير؟

سكت موجان عن الإجابة ولي لم يسكت بعد وقرب إليه قطعة ورق صغيرة وطلب منه أن يرسم له شيئاً ما.

تفاجأ العجوز من هذا الطلب المفخخ.. ومد يده لقلمه المفضل وأخذ يرسم أجزاء كلمة مرحباً أو (نهماو) باللغة الصينية ليقدمها للضابط لي تحفة جميلة في برهة وجيزة.

كان رسم الكلمة متقناً للغاية ومع ذلك شعر لي بأن العجوز بإمكانه أن يبدع أكثر لو رسم كلمة أخرى بلغة غير هذه اللغة.

ربما مصدر شعوره ذلك أن تلك الأقلام المذبذبة لم تصنع لكتابة الحرف الصيني، وربما لأنه يعلم يقيناً أن الأويغور شعب متمرد

متمسك بلغته الأويغورية والتي تُكتب بحروف عربية مع اختلافات طفيف.

أراد أن يسأل موجان إن كان يتقن حرفا آخر وكلمة أخرى غير الكلمة الصينية.. إلا أنه كان على يقين بأن موجان سينفي ذلك.

وضع لي الورقة الصغيرة في جيبه وصعد لتناول الطعام.. دون أن يضيف أي كلمة.. ودون انتظار موجان أو مساعدته على ارتقاء تلك السلالم.

لم يجد على الطاولة من جاء لهذا البيت لأجلها فتناول لقيمات وشرب القليل من الماء دون أن يمد يده للخمير وتوجّه صوب غرفةٍ هو يعلم أنها لجيفنك.. والحزب يرى أن سرير المرأة الأويغورية يسع اثنين.

وصل موجان حين مد لي يده لفتح باب تلك الغرفة.. وأسرعت الأم نحوه لتمسك يده وتمنعه من الدخول.

نظر إليها لي نظرة حادة سحبت على إثرها يدها وجعلتها خلفها ليتدخل موجان قائلاً:

- هذه غرفة ابنتنا بإمكانك أن تنام هنا في غرفة الضيافة أو في غرفتي أنا.

ليجيبه قائلاً:

- لما باب الغرفة موصد؟ ومن يوجد بالداخل؟ وهل ابنتكم تصلي؟ ألهذا أغلقت الباب على نفسها؟

- لا.. لا هذا غير صحيح على الإطلاق.

سحب لي مسدسه وركل الباب بقوة دون أن يأبه لتوسلات موجان وزوجته بأن لا يفعل ذلك.

دخل الغرفة ليجد جيفنك جالسة على حافة سريرها وقد وضعت عنها كثيراً من ثيابها استعداداً للنوم.. وقامت فزعنا من سريرها حين رآته على عتبات غرفتها.. وأسرعت لا إرادياً إلى الباب لتغلقه في وجهه بقوة، يدفعها في ذلك الحياء وحفظ الشرف.

وجد لي حينها نفسه خارج الغرفة وقد أصابته الدهشة لجمالها أكثر من دهشته لجرأتها.. كما أصاب موجان وزوجته الرعب وأخذا يعتذران له عن ذنبٍ لم يقترفاه لِهْدَا من روعه.

دخلت الأم إلى ابنتها لتجدها قد ليست فستانا فضفاضاً طويل الأكمام وأخذتها معها إلى غرفتها.. وموجان يقول مبتسماً:

- الغرفة غرفتك سيدي بإمكانك أن تدخل إليها الآن.

دخل لي واتكأ على سرير جيفنك والذهول يشلّ تفكيره، تساءل وهو يمرّر يديه ليتحسس حرارة جسدها على غلاف ذلك السرير:

- كيف استطاعت أن تغلق الباب في وجهي وتطردني؟ كيف لم أطلق النار عليهما؟ لما أضعف أكثر معها؟ لما أفقد حزمي أمام تصرفاتها الطائشة؟ لما كل هذه التنازلات أمام امرأة؟

كيف سمح لنفسه بأن يُهان إلى هذه الدرجة؟ إن كان يرغب في تلك الفتاة فبإمكانه أن يجعلها عنده خادمة وأن يفعل معها ما يحلو له، ومن الذي سيمنعه؟

بإمكانه أن يجلس في مكتبه ويطلب من جنوده إحضارها بالقوة
ليأخذ منها ما يريد.

ما يريد؟ نعم هو لا يدري ما يريد منها بالتحديد، ربما هي تلك
مشكلته فهي بالنسبة إليه ليس مجرد أنثى.

ظل يتقلب على ذلك السرير يقلّب أفكارا متضاربة لكنه لم
يفعل شيئا.

فكر في أن يخرج إليهم ليقتلهم جميعا.. وربما أبقى على جيفتك
لبعض الوقت للتسلية، وليست المرة الأولى التي يفعل ذلك مع
عائلة من الأويغور.

لكنه اليوم ومع هذه العائلة لم يستطع أن يفعل ذلك.. ولا
استطاع أن يغادر المنزل ولا أن ينام أيضا.

موجان أيضا لم ينم إطلاقا.. لقد ظل مستلقٍ أمام باب غرفته
يحرس ماء وجهه، لم يغلق الباب لكي لا يُغضب لي ولم يفتحه
تماما حفاظا على شرفه.

وعند الساعة الثانية صباحا سمع موجان لي وهو يتحدث مع رجل آخر.. يبدو أنه أعلى منه رتبة وكان يؤنبه على شيء ما ولي لم يكن يرد إلا بقوله:

- حاضر سيدي.. أنا آسف.. كل شيء سيكون كما تريد.

بعدها بعشر دقائق سمع موجان صوت عربة قرب البيت ليخرج لي ويغلق خلفه الباب بهدوء كأن شيئا لم يكن، انسحب كما ينسحب السارق الذي أحدث ضجة ما في مكان معتم وهو يحدث نفسه بالعودة للظفر بشيء ثمين في يوم آخر.

المشهد الثاني عشر

عندما يتطرف الاقتصاد يصبح الوطن أولى بأجساد
المواطنين من أنفسهم.

يوم جديد في معسكرات إعادة التثقيف ولكنه يبدو مختلفا عن
سابقه، هكذا بدا لتامر.. ففي ذلك اليوم تم إخراجه من
زنزنته تلك ليقدم إليه بعض الماء ليزيل عن جسده شيئا من
القذارة.. كما أعطيت له ثيابه التي كان يلبسها لحظة اعتقاله.

غمرته السعادة وهو يشعر أن أبواب الحرية قد تُفتح له وإن لم
تكن هناك أمارات واضحة تدل على ذلك، ولكن أليس كل شيء
في هذا الإقليم غير منطقي؟ إذن يمكن أن تكون الحرية هنا في
إحدى لحظات العذاب.. أو في اللحظة التي يتوقع فيها السجين
أنها النهاية.

صعد تامر سلالم طويلة أوصلته إلى الطابق الأرضي ومنه إلى
الساحة الخارجية للمعسكر، استطاع حينها أن يرى ضوء
الشمس مجددا.

كانت معاملة الجنود له غريبة.. فقد كَبَلوا يديه بإحكام وأمسكوه جيداً ولكن دون أن يضعوا على عينيه أي حائل مثلما فعلوا معه عند اقتياده لهذه المعسكرات السريّة أول مرة.

استطاع أن يرى تلك المعسكرات من الخارج، أبنيتها المتجاورة لم تكن مرتفعة بشكل كبير.. لأن أغلب طوابق هذه البنايات كانت تحت الأرض.

تحيط بتلك المعسكرات جدران اسمنتية عملاقة أعلى من البنايات نفسها وبأسلاك شائكة مع حراسة مشددة ونقاط تفتيش كثيرة.

كل هذا جعل تامر يفكر في الأسوأ ويتساءل:

- هل سيتم إطلاق سراحى حقاً؟ لما تم السماح لي برؤية هذه المواقع العسكرية السريّة إذن؟

ولكنه رغم ذلك بقي متشبثاً بالأمل.. فهو على الأقل لا يرتدي بدلة السجناء.

أدخل تامر إلى مركبة عسكرية مع عشرة سجناء آخرين، قلب ناظريه في وجوههم البائسة علّه يتعرف على أحد منهم لكن دون فائدة.. فقد كان الوحيد الذي أخرج من الزنزانة التي كان سجيناً فيها.

لم يكن الجو حاراً صباح ذلك اليوم رغم كون توربان منطقة صحراوية.. فأشعة الشمس الذهبية بالكاد كانت تُفلت من خلف قمم الجبال والتلال، ونسائم الفجر لم تنهزم بعد أمام هواءٍ حار جاء إيدانا بسطوع شمس ملتهبة.

انطلقت المركبة وأخذت تسير بسرعة كبيرة على طريق سريع.. فأغلب الطرق في شينجيانغ حديثة ومرتبطة ببعضها البعض مشكلة بذلك شبكة طرق توصل إلى طريق الحرير الجديد، أو مشروع الحزام والطريق.

المناظر الطبيعية الخلابة سرقت لب تامر وهو يُطل من خلف زجاج نافذة صغيرة سوداء معتمة.. وأخذت تنسيه كل الذي جرى له في توربان لولا تلك الجبال من النار التي شكلتها صخور

حمراء متوهجة.. والتي أبت إلا أن تذكره بجحيم معسكرات
إعادة التأهيل.

وعادت الأفكار المخيفة لتملاً تفكيره.. نظر إلى وجوه السجناء
المرافقين له ليجد الرعب يسكنها والسكون داخل تلك المركبة
كان مربيا.

سأل تامر الجميع عن الوجهة ولكن لا أحد كان يجيب.

اختفى جبل النار واقتربت المركبة من واد كبير غرست فيه آلاف
أشجار العنب.

سمع تامر من قبل أن تربان مدينة العنب وأنه يوجد بها أكثر من
خمس مئة نوع مختلف من العنب.. لكن الأهوال التي عاشها في
هذه المدينة حرمتها من تذوق ولو نوع واحد منها.

كل تلك البساتين الغناء تنتظر كل صباح اشراقة شمس دافئة
وماء تأتي به الكهاريز ليبث فيها الحياة.

والكهاريز نظام للسقي بناه قدماء الأويغور، يسمح بتجميع المياه
في قنوات جوفية أسفل الهضاب الصخرية ليتم نقلها إلى

الحقول، وقبل ذلك لا بد من بناء عدد كبير من الآبار المرتبطة ببعضها من الأسفل بشكل معقد للغاية يصعب توصيفها ويصعب على غير الأويغور تصميم شيء مماثل.. ولا حلّ آخر يضمن وصول الماء للبساتين الغناء في صحراء قاحلة.

كل تلك البساتين الفيحاء لم يكن تامر قد رآها من قبل ولا حتى عند قدومه لتوربان أول مرة.. لذلك الوجهة لن تكون شرق البلاد بل غربها هكذا بدا لتامر.

إذن أورو متشي هي الوجهة المحتملة وحينها ازدادت مخاوفه أكثر وهو يتذكر حديثا سابقا.. أخبر فيه أن السجناء الأكثر تطرفا يوجهون إليها دون أن يُعلم بعدها عنهم أي خبر.

بعد ساعتين من السير تقريبا توقفت المركبة أمام بناية ضخمة.. لا تبدو مؤسسة عسكرية رغم الحراسة المشددة فيها.. فحركة المركبات المدنية حولها كانت كثيفة والكثير من العائلات كانت تدخل وتخرج من تلك البناية التي توسطت منطقة عمرانية.

أكثر ما شد تامر إلى تلك المنطقة مقبرتها فسيحة الأرجاء ومطارها متعدد المداخل.

أدخل تامر ومرافقيه على غير الباب الرئيسي لتلك البناية بل عن طريق باب يوصل إلى قبو أسفلها.. ومن ذلك القبو دخلوا مصعدا أوصلهم إلى غرفة كبيرة تشبه قاعة الانتظار.

لم يقدم يومها للسجناء القادمين من توربان أي طعام ولا شراب ولو شيئاً قليلاً للحفاظ على حياتهم.

لم يطل وقت الانتظار كثيراً ليقتراد الجنود أحد السجناء إلى وجهة مجهولة، لبدأ السجين حينها بالبكاء والصراخ ولكن لا أحد من الجنود كان يضره.. كأن الذين نُقلوا إلى هذه المنطقة مسموح لهم بالبكاء ودون إذن مسبق.. وليس مسموح لهم بتناول الطعام ولو ذلك الحساء المقرف.

بدأ جميع السجناء المرافقين لتامر بالصلاة والدعاء جهرا دون أن يمنعمهم أحد.. ودون أن يُزعج تصرفهم ذلك الجنود المرافقين لهم.. وحتى كاميرات المراقبة التي كانت تُرصع المكان لم تكن ترسل أي إشارات تحذير.

الجميع يدعوا بإخلاص إلا تامر بقي حائرا يتفرج.

مرت نصف ساعة ليأتي الجنود مجددا لاقتياد سجين ثان وثالث.. وفي كل مرة يبكي السجين المُقتاد كسابقه ويصرخ.

- أتركوني لا أريد أن أموت.

تعجب تامر واقترب من أحد السجناء ليسأله:

- أين يأخذ الجنود كل نصف ساعة واحدا منا؟

لكن ذلك السجين لم يجبه.. كان يدعوا بإخلاص رافعا يديه إلى السماء والدمع يسيل على خديه.. لم يلتفت لتامر بل لم ينتبه لاقتربه منه كأنه في خلوة زاهد مع ربه لا يريد لها أن تنقطع.

أراد تامر أن يكرّر سؤاله إلا أنه سكت برهة وأخذ يتأمل وجه ذلك السجين الذي بدا له مألوفاً، نعم إنه يشبه ذلك الرجل الذي اعتقل معه من أمام بيت جيفنك.

لا.. ليس يشبهه بل هو بالفعل وقد زالت آثار النعمة عنه بعد أقل من أسبوعين في معسكرات إعادة التثقيف، فهو حليق الرأس والتقرحات وكدمات الضرب بادية على كامل أنحاء جسده.

سأله تامر ثانية:

- سيدي ما الذي يحدث كل نصف ساعة؟

إلا أن حبيب الله لم يجبه وظل يدعو، ترجاه تامر أن يجيبه إلا أنه لم يرد على سؤاله ليقول له حينها:

- أنت الذي اعتقلت من أمام بيت جيفنك؟

حينها فقط التفت إليه حبيب الله وأمارات الحسرة التي تمزق أحشائه بادية عليه.. إلا أنه لم يرد على السؤال أيضا وعاد للدعاء مجددا.

- قل لي فقط ما الذي يحدث؟

- ستقابل الله بعد نصف ساعة من الآن إن كان الدور هو دورك.

هكذا أجاب حبيب الله باختصار فلا وقت له إلا للدعاء والصلاة قبل لقاء الله.

فهم تامر حينها أنه محكوم عليه وعلى كل أولئك السجناء
الأكثر تمردا بالإعدام وأجسادهم ملك للدولة.

ولكنه لم يفهم لما جيء بهم إلى هنا؟ ألم يكن بإمكان الجنود
إعدامهم في توربان؟ ولما كل نصف ساعة يعدم واحد؟ أليس
بإمكان الجنود إعدام الجميع في لحظة واحدة؟

ليدخل الجنود مرة أخرى وتجمّد حينها الدم في عروق تامر وقد
رأى أن الموت أقرب إليه من أي وقت مضى.. ومَرّت أمام عينيه
وفي لحظة واحدة كل نزواته.. وشريط ذنوبه رآه مفصلاً.

تذكر صلاته التي فرّط فيها طويلاً.. وهو يتساءل:

- هل زادي يكفي للقاء الله؟ وهل يشفع لي عنده أني لم أكفر
بالصلاة؟ ولم أنكر وجوده وأنّي أُقتل لأجل ذلك؟

أغمض عينيه ينتظر أيادي الجنود أن توضع على كتفيه ليُجر
إلى الموت جراً.. لكن الجنود اقتادوا غيره وفتح تامر عينيه حين
رفع حبيب الله صوته بالتكبير، كان راضٍ بقدره ثابتاً على لا إله
إلا الله ليس يُزحزحه عنها شيء.

لحق تامر بالجنود.. تبعهم نظراته، هو يريد أن يعرف ما الذي سيفعلون بحبيب الله لم يُنقل بعيداً عن تلك القاعة ليثبت على طاولة ويضرب برصاصة من مسدس كاتم للصوت صوب الجهة اليمنى لصدره من المسافة الصفر، ودون الحاجة لنصف ساعة أنهموا أمره.

لم يسمحوا له بأن يتخبط ألماً فقد أُدخل على جناح السرعة إلى غرفة كان يقف عند بابها ذلك الطبيب الذي حقن تامر من قبل وأفقده الرغبة في تناول الطعام.

ولكن لماذا نصف ساعة إذن ليعدم سجين آخر؟ ذلك هو الشيء الذي بقي تامر حائراً لأجله، هل يمنح الجنود بهذا كل سجين فرصة لاستغفار إله هم لا يؤمنون بوجوده؟ لما إذن نصف ساعة لقتل كل سجين؟

جلس تامر أرضاً على ركبتيه ووضع كفيّه على رأسه وأغمض عينيه في انتظار الموت ليدخل إليه ببدلته الرسمية الأنيقة.

نصف ساعة بالتحديد ليدخل الجنود ويسأل أحدهم:

- أين تامر؟.. أين السائح السعودي؟

لكن تامر لم يجب ولم يستطع أن يبكي ولا أن يفتح عينيه وجف ريقه تماما.

وضع أحد الضباط يده على كتف تامر برفق وهو يقول:

- تامر هل يمكنك أن تذهب معنا؟

فتح حينها تامر عينيه غير مصدق للذي يحدث معه وهو يتساءل:

- هل الموت لطيف إلى حد الحد؟ أم أن شيئا آخر تغَيَّر؟

رأى ضابطا أنيقا وهو يمد له يده ليرفعه عن الأرض، لم يجره.. لم يُعنِفه بل كان رفيقا معه ومبتسما كذلك.

مرّ تامر بقرب تلك الطاولة التي أعدم عليها حبيب الله، هي لا تزال ملطخة بالدم وتجاوز تلك الغرفة التي كان الطبيب يقف عند بابها، نظر تامر إليها وإلى الغرف الكثيرة التي تحيط بها وإذا بها تشبه غرف العمليات.. يملؤها الأطباء.. ولكل غرفة تخصص ما، سحبه الضابط قليلا ليبعده عنها دون أن يغيّر ابتسامته.

ونُقل تامر بسرعة إلى جناح واسع به طعام مُعلَّب وماء بارد وأرائك نظيفة، لم يكن تامر من قبل يهتم لتلك الأشياء بل لم يكن ينتبه لوجودها حين كان ينزل في الفنادق الفخمة، واليوم يُسعدده حمّام ساخن.. كما أسعده إحضار أمتعته التي أخذت منه حين اعتقل.

قال له الضابط الذي جاء به لذلك الجناح استحم وغيّر ثيابك ستنقل قريبا إلى وطنك.. وترك له قبل أن يخرج بعض المراهم التي تزيل الكدمات وأخرى للتقرحات الجلدية.

أخذ الماء والغسل يسيلان على جسد تامر ليزيلا القمل عن شعره والقذارة عن جسده.. ولكنّ ذلك لم ينسيه كل الذي حدث معه.. وهو لم يفهم بعد سرّ المعاملة الحسنة والفجائية أيضا.. والتي كانت قبل لحظة الإعدام ببرهة.

المشهد الثالث عشر

الخط العربي يفتن فتنة الحسناء.

أزاح لي الغطاء عن كوپٍ من الشاي كان قد أحضره معه.. وأخذ يرتشف منه وهو يفكر في كل الذي قاله له المسؤول الأمني الرفيع عن الخطأ الفادح الذي وقع فيه بسبب ذلك السائح السعودي.

لم يسبق وأن تلقى لي عقوبة منذ التحاقه بجهاز الشرطة.. واليوم يجد نفسه مهددا بالإيقاف من عمله.

كان المسؤول الأمني الرفيع يفكر في تسليط أشد العقوبات على الضابط لي لولا إخلاص لي وتفانيه في خدمة وطنه.. وسجله كان خاوٍ من الأخطاء.. باستثناء إرساله للسائح السعودي لمعسكرات أعدت خصيصا للمسلمين الأويغور دون غيرهم.

عندما أرسل لي تامر إلى تلك المعسكرات لم يفكر في أنه قد يغادرها حيا وينقل معه شهادات قد تكون ضد الحزب، ولم

يخطر على باله أن تامر من أسرة ثرية وأن أمه بإمكانها أن تدفع الكثير من المال.

كان الإبقاء على تامر في تلك المعسكرات مشكلة بعد تدخل شخصية مرموقة من السفارة السعودية في بيكين، وإطلاق سراحه كان مشكلة أكبر منها، لذلك غضب المسؤول الرفيع بشدة واستدعى لي على الساعة الثانية صباحاً لمكتبه.

والأمر كاد يخرج عن السيطرة لأن تامر وُجّه صباح ذلك اليوم للإعدام.. وأعضاءه كانت ستباع لأكثر من شخص.

والأسوأ في نظر المسؤول الرفيع أن تامر خرج من معسكرات توربان غير مغمض العينين كما دخلها، لقد اطلع على أشياء كثيرة عن المعسكرات.. ما كان يجب على من اطلع عليها أن يبقى حياً.

حاول لي أن يهدئ من روع المسؤول الأمني.. وأن يقلل من أثر ذلك الخطأ على سمعة الحزب إلا أنه لم يقتنع.

الشيء الوحيد الذي جعل المسؤول يهدئ قليلاً هو قول لي:

- سيدي بإمكاننا أن نمحو ذاكرته القصيرة.. لن يتذكر بعد ذلك كيف وصل للإقليم ولا كيف غادر.. والأدوية فعّالة ومجربة، وإن تذكر شيئاً لن يعيش طويلاً ليقول الكثير.

جلس المسؤول الأمني على كرسي مكتبه وهو يفكر في مشكلة أخرى، فتلك الأدوية تحتاج أسبوعاً أو أسبوعين بعد الحقن قبل أن تصبح فعّالة.. ولا يمكن الإبقاء على ذلك السائح طوال تلك الفترة.

حينها أجاب لي وكأنه كان يعلم ما الذي يدور في ذهن المسؤول.. وواصل شرح خطته لتدارك الخطأ الذي وقع فيه.. واقترح بأن يُرحّل تامر إلى السعودية براً عن طريق مشروع الحزام لكسب الوقت المطلوب.

- وسنقول يا سيدي أن تامر فضّل المغادرة براً فهو يحب السياحة ولن يشك في ذلك أي أحد.

حينها فقط سمح المسؤول الأمني للضابط لي بالمغادرة.

استيقظ موجان متأخراً.. إنها الحادية عشر صباحاً.

دفع باب غرفته الموارب وخرج تاركاً رحمة وأمها يغطون في نوم عميق.. فلم ينم أي أحد منهم إلا بعد أن غادر لي المنزل.

دخل موجان إلى الحمام وتوضأ للصلاة ليخرج وهو يستغفر ويدعو بصوت مسموع، توجه صوب غرفة الضيافة وقد اعتاد أن يصلي فيها ليجد لي جالساً على كرسي يحتسي الشاي ويعبث بمحبرة موجان وأقلامه التي أحضرها من القبو.

لقد عاد رجل الأمن اللص.

صرخ موجان بصوت عالٍ من شدة دهشته وجلس أرضاً غير مصدق للذي يراه، للوهلة الأولى ظن أن الكوابيس التي شاهدها ليلاً لا تزال تطارده حتى بعد استيقاظه.

خرجت رحمة وأمها مسرعتين تتبعان صدى صرخة موجان واكتملت دهشة الجميع ولي يقول للعجوز:

- ألن تصلي بعد أن توضأت؟

سكت موجان لبرهة قبل أن يُجيبه مرتبكاً:

- ليس الآن.. أقصد.. عن أي صلاة تتحدث؟

رد لي قائلاً:

- لا بأس اجلس معي بإمكانك أن تصلي سرا كما اعتدت أن تفعل ذلك عندما أكون في بيتك.

صُدم موجان ولم يجد ما يقوله بعد ذلك.. وجلس إلى جانب لي كما طلب منه والرعب يسكن ذاته، واتجهت رحمة وأمها صوب المطبخ للتحجج بإعداد الفطور وللابتعاد عن هذا الرجل الغريب.

أخرج لي ورقا عالي الجودة ووضعه على الطاولة ليطلب من موجان أن يرسم له لوحة تستحق أن توضع على جدار.

وجد موجان في هذا الطلب متنفسا ووسيلة للتكفير عن ذنب الوضوء والصلاة وطريقا ليأمن به شرلي.

رسم موجان لوحة جميلة على عجل وبلغة صينية مشكلة من كلمات.

نظر إليها لي مليا حين ناوله إياها موجان دون أن يظهر اندهاشه بتصميمها الفريد وقام بتمزيقها ورميها أرضا، حينها تسلل الرعب إلى قلب موجان مجددا وفقد الأمن الذي أحسه حين طلب منه لي أن يرسم له لوحة.

أخرج لي ورقة ثانية من ملف أحضره معه وطلب منه لوحة أخرى دون أن يبين الذي لم يعجبه في اللوحة الأولى.. وشعر موجان بأن هذه الفرصة ثمينة ويجب عليه أن لا يضيّعها.. فرصة ثانية قد لا تكون بعدها فرصة أخرى.

أخذ نفسا عميقا وأغمض عينيه باحثا عن أجمل الكلمات وأكثرها رشاقة، لترقص بعد ذلك الريشة في يده كما يحلوا لها أن تفعل ذلك حين تدفع بها أنامل موجان على الورق الأبيض الناعم.

بعد دقائق معدودة قدم موجان للضابط لوحة تستحق أن توضع على جدار مكتبٍ لتزيّنه.. أو في مدخل بيت حزين لتبث فيه الروح والبهجة مجددا، إلا أن لي لم يعبئ بها وقام يمزقها وسط دهشة موجان.

أخرج الورقة الثالثة وأعاد الطلب مجددا وقبل أن يمد موجان يده ليرسم الذي طلب منه همس لي في أذنه قائلاً:

- ارسمها بلغة أويغورية.

لم يستطع موجان أن يرسم الحرف العربي الذي يهواه.. وكادت العبرات أن تغلبه وهو يتحجج بأنه لا يجيد حرفاً آخر غير الحرف الصيني، إلا أن لي لم يقتنع بذلك وأخذ يحشوا بالرصاص مسدسه ويكرر طلبه مرة أخرى.

ولكن موجان لم يستطع أن يفعلها وهو يرى أن حياته معلقة بين إصبع لي والزناد.. لأنه يعلم أن الموت أهون من رسم لوحة تكون دليل إدانة على التطرف.

طال وقت انتظار لي وفقد أعصابه فرفع مسدسه صوب موجان ووضع إصبعه على الزناد.. لتخرج رحمة وأمها من المطبخ مسرعتين.. فقد كانتا تراقبانهما خلسة منذ البداية.. واحتضنت رحمة والدها.

أخفى لي مسدسه حين وقعت عينيه على جيفنك وحين سمعت
أذناه أنفاسها العجولة.. وتاه لحظة في قسّات وجهها قبل أن
يعيد طلبه بهدوء قائلاً:

- أرسم لوحة فنية بلغة أويغورية.

نظر موجان إلى ابنته وزوجته باحثاً عن ذاته.. عن الصواب في
عينيهما يستأذنهما ليكتب ويرسم الحرف العربي جهراً وأمام
رجل أمن.. كأنه لا يريد أن يتحمل مسؤولية كتابته ورسمه
لوحده فالعقوبة قد تطال الجميع.

مد بعدها موجان يده لكتابة بسم الله الرحمان الرحيم بعد أن
سكنت روحه، بدأ يرسم الحرف العربي والدمع يسيل على
خديه فقد مرزمن طويل لم يرسم هذه الآية على ورق محترم.

كانت هذه الآية تزين أغلب بيوت الأويغور قبل أن يتخلصوا منها
جميعاً.. وكان موجان يرسم تلك اللوحات عن حب.. ليتوقف
بعد ذلك خوفاً على حياته، واليوم يعود لرسمها للسبب ذاته.

كان لي ينظر إلى الحرف العربي وهو يخرج من عتمة المحبرة إلى
نور الورق الأبيض تارة، وإلى نور عيني جيفنك تارة أخرى.

يميل موجان بالحرف ويميل لي برأسه معه تسلب عقله
انحناءات الحرف كما انحناءات جسد جيفنك.

يختال الحرف الغرور بنفسه كما تفعل جيفنك ذلك تماما وهي
تُشبح بوجهها عن لي كلما التقت العيون.. غير آبهة بتعلقه بها.

أنهى موجان لوحته ودفع بها إلى لي ليأخذها بكلتا يديه ويملاً
ناظريه منها.. ويقربها إلى وجهه ليشمها وقد استحالة جيفنك
وتلك الورقة في نظره تحفة واحدة.. والنعمومة مشتركة.

ترك لي اللوحة جانبا وأمسك رأسه بكلتا يديه يحاول أن يتذكر
شيئا ما.. فاللوحة بدت له مألوفة، وتساءل سرا وهو يحمل
اللوحة من جديد:

- ما الذي دفعني لأطلب من موجان هذا؟

لما طلب ذلك وصدى توبيخات المسؤول الأمني لا تزال تقرع
طبلي أذنيه؟

ما الذي يغريه في الحرف العربي وقد طُلب منه أن يزيله عن كل
واجهات توربان.. وعن جدران كل البيوت.. بل من عقول كل

الأويغور أنفسهم، هل لأن الحرف العربي صار فجأة شبيه حبيبته؟ أم أن شيئا آخر في ذاكرته يجعله متعلقا بذلك الحرف دون أن يدري ما هو؟

لم يترك لي اللوحة بل ضل يتأمل حروفها وهو يقول في نفسه:

- كيف يكون هذا تطرفا؟ كيف يكون الدين أفيوتا؟ وكيف يكون الإسلام إرهابا؟ والصلاة مرضا إيديولوجيا؟

أبعد الضابط اللوحة قليلا لينظر إلى جيفنك والخمار يغطي شعرها.. وهي لحظتها أجمل عنده من اللوحة التي يحملها.. بل أجمل من كل لوحة قد يرسمها فنان.

تذكر كل الذين قتلهم وكل الذين زج بهم في السجن وكل الذين عذبهم ليقول في نفسه:

-كيف يكون الحجاب انحرافا يعاقب عليه القانون؟

وتساءل موجان أيضا لما طلب منه لي تلك اللوحة؟ ولما لم يمزقها بل ظل يتأملها ويقرها إليه؟

وتساءلت رحمة عن سرّ تلك النظرات الملحة التي رمقها بها ذلك الضابط.. هو لم يكن يُشّيح بوجهه عنها إلا لينظر إلى اللوحة الفنية ثم تعود عينيه سريعا لتلتهم عينها.

أخذ الضابط بعدها اللوحة و سار بخطى متثاقلة صوب الباب ليخرج من البيت.. ألقى نظرة أخيرة قبل أن يُغلق الباب خلفه ودون أن يقول أي كلمة توارى عن الأنظار.

المشهد الرابع عشر

كوابيس أورومتشي ليست خرافة.

استطاع تامر أن ينام ليلته الأولى خارج المعسكرات.. فالبطن وإن كان خاوٍ إلا أن المكان كان نظيفا والفراش وثيرا، والماء ليس جريمة في جناحه ذلك بالمستشفى، واختلطت عليه في ليلته تلك ذكرياته في المعسكرات بالكوابيس.. والكوابيس أرأف منها.

تذكر حديثا طويلا جرى بينه وبين بعض السجناء عن أسباب الدخول لتلك المعسكرات.

قال أحدهم أنه أُدخل إليها لأن الشرطة عثرت في هاتفه على صورة لفتاة محجبة وهي رافعة يديها للدعاء، وقال آخر إن سبب اعتقاله هو أن الشرطة لم تعثر على السجائر والكحول في واجهة محله.

وقال ثالث أنه اعتقل بمجرد عودته من بلد عربي، وقال رابعهم أنه لم يُحمّل تطبيقا كانت السلطات قد أوصت كل الأويغور

بتحميله على هواتفهم.. لتسهيل التجسس عليهم.. وبإذنبهم أيضا،
وقال آخرون أشياء أخرى أكثر غرابة.

لكنّ أكثر شيء مؤلم سمعه تامر وبقي عالقا في ذاكرته هو بكاء
السجناء على أطفالهم الذي نقلوا قصرا إلى دورٍ للأيتام دون
يُتم.

ولا زال يتذكر والد مع يسيل على وسادته نساء الأويغور العاريات
اللائي كن يُحقن.. وكيف كانت الجنديات ترغمهن على تناول
أدوية وإجبارهن على فتح أفواههن للتأكد من ابتلاعها.. لكي لا
تنجب بعد ذلك أي منهن طفلا قد يكون متطرفا يؤمن بوجود
الله، أو أكثر تطرفا من ذلك.. طفلا يؤمن بوجود وطنٍ اسمه
تركستان الشرقية.

ولا أحد سيخرج من تلك المعسكرات.. ومن خرج فإنه لن يرى
أطفاله.. وزوجته لن تنجب له بعدها طفل آخر، وكل فتاة من
الأويغور هي مشروع زوجة لرجل من الهان.

يُدق الباب مرة ومرتين وثلاث ليستفيق تامر مذعورا.. ويسرع
صوبه ليعرف من الطارق.

إنه الضابط الأنيق عند الباب.. ابتسم لتامر ابتسامة عريضة بعد أن حيّاه ليبادلّه تامر بابتسامة مصطنعة وهو يرد عليه تحيته.

دخل الضابط وفتح الباب جيّدا ليسمح بدخول رجل مرافق له، تغيّر حينها مزاج تامر وفقد ابتسامته تماما وظل واقفا دون حراك.. وحتى ذلك الضابط انتبه إلى أن تامر يبدو خائفا ليقول مطمئناً:

- ما بك يا تامر إنه الطبيب مؤتسو جاء ليفحصك ليس إلا.

رفض تامر ذلك ولم يسمح للطبيب بالاقتراب منه.

لم يطل الوقت قبل أن يخرج الطبيب ويوصي الضابط بأن توضع بعض الحبوب في الماء المقدم لتامر.. والذي شعر في الأيام التي تلت زيارة الطبيب باستعادة شهيتته ورغبته في تناول الطعام مجددا دون أن يعرف السبب.

أخبر الضابط تامر أن اليوم هو يوم ترحيله إلى وطنه وأنه سيكون مرافقا له.. وقبل ذلك سمح له بإجراء مكالمة هاتفية مع

أمه ليطمئنها على أحواله.. والمكاملة تمت من الهاتف الخاص للضابط..

لم تطل تلك المكاملة ولم يخبر تامر أمه عن أي شيء حدث له في هذا الإقليم.. فالمكاملة مقتضبة وهو لم يُرد أن يفسد سعادتها بسماع صوته مجددا.. والضابط لم يتحرك من أمامه، كما لم تخبره أمه أنها قد أجرت لأخيه عملية زرع كلية قبل يوم واحد وأن العملية ناجحة.

رغم أن إيجاد متبرع ما بكلية في جميع أنحاء العالم قد يتطلب سنوات وقد يموت المريض قبل ذلك.. لكن كل شيء مختلف في أورومتشي فالأمر يتطلب أيام معدودة فقط.

فبعد أن يدفع المريض ثمن العملية ويرسل كامل التحاليل المطلوبة يبقى أمامه إتمام إجراءات السفر.. ووصله لإحدى مستشفياتها قد يكون هو موعد إجراء عملية الزرع.

الأمر أشبه بتوجه سائح إلى مطعم فاخر.. وعند الوصول يختار السائح من حوض الأسماك سمكة يرغب في تناولها.. ليتم إخراجها من الحوض إلى الفرن مباشرة وحسب الطلب،

والنتيجة عشرات الملايير من الدولارات كأرباحٍ لاقتصاد البلد..
وليس كأرباح لمطعم السمك.

استعجل الضابطُ تامر لقطع الخط بعد سماعه أم تامر وهي
تقول لولدها أنها في أوروتمشي.. وأراد انتزاع هاتفه منه وتحجج
بتوقيت الرحلة المبرمجة.

ودّع تامر أمه بعد أن اطمأنت على أحواله ودون أن يعلما أنهما
في المكان ذاته.. وأنه تفصلهما جدران ذلك المستشفى.

بعد المكالمة مباشرة تناول السائق فطور الصباح، جمع أغراضه
وخرج من ذلك المستشفى في مركبة سوداء ذات زجاج معتم..
لتتوقف المركبة بعد نصف ساعة في محطة للقطار وسط
أوروتمشي.

غادر السائق دون كلمة وداع وبقي برفقته رجل الأمن الذي
ارتدى بدلته المدنية.

دقائق معدودة ليصل القطار المتجه صوب كاشغر.

سأل تامر المرافق متعجبا:

- أَلن نذهب للمطار؟

فرد عليه.

- لن تعود إلى وطنك جوا.

ودون أن يبيّن له سبب ذلك قال ممازحا:

- أَلست تحب السياحة والتجوال؟

رفض تامر أن يركب القطار ورفع صوته في وجه رجل الأمن..
فقد تعلّم في هذا الإقليم أن كل شيء غير مفهوم.. وكل شيء غير
واضح هو مصيبة خفية أو خطر محقق.

لكن رجل الأمن بقي هادئا ولم تظهر عليه أي أمارات غضب من
رد تامر العنيف، اكتفى بابتسامة عريضة وهو يبيّن لتامر أنه
مخّير بين أن يركب القطار إلى كاشغر ومنها إلى باكستان ثم
السعودية.. أو عليه أن يوقع على وثيقة تبين رفضه للترحيل.

وأنهى كلامه بقوله:

- إن رفضت الركوب فقد لا ينفعك تدخل سفير بلدك شخصا.

رجل الأمن كان واضحا وكلماته كانت بسيطة إلا أنها تحمل تهديدا صريحا لتامر بالدخول في المجهول إن رفض خطة الترحيل تلك.

فهم تامر الرسالة وركب دون أن يضيف أي كلمة فكل مكان في العالم سيصل إليه لن يكون أسوء من تلك المعسكرات.. وفهم أيضا سرّ تحسن معاملة رجال الأمن له.

- مرحبا تامر كيف حالك؟

التفت تامر يتتبع الصوت و إذا بعلي أدي نان يحتضنه فجأة.. وبقوة ضمه إليه.. كصديق حميم لم يره منذ زمن طويل.. وتامر بالكاد تذكر اسمه، فعلي سجين شاركه الزنانة ذاتها.

بدى له أن تلك الأحضان مصطنعة فلا شيء في شينجيانغ متروك للصدفة، لذلك تساءل سرا:

- كيف استطاع علي أن يخرج من تلك المعسكرات وبهذه السرعة؟ وكيف وصل إلى هنا؟

جلسا سويا وخلفهما جلس رجل الأمن المرافق لتامر.

تكلم علي طويلا وتامر لم يكن مهتما لينصت لكلامه.. كانت
رغبته الوحيدة هي معرفة سبب وكيفية خروجه، لذلك سأله
بشكل ماكر لكي لا يظهر رغبته تلك قائلا:

- من أي وطن أنت يا علي؟ وإلى أي مكان أنت ذاهب؟

التفت علي يمينا و شمالا كأنه يريد أن يتأكد من أن المكان غير
مراقب.. و اقترب من تامر ليمس في أذنه قائلا:

- أنا من تركستان الشرقية ومن الأويغور بالتحديد.. وأنا ذاهب
للسعودية لأعتمر.

وقعت تلك الكلمات المحرمة في أذني تامر وأصدرت دويًا داخله..
فتح حينها عينيه جيدا وهو ينظر إلى وجه علي مستغربا و
متسائلا في سرّه:

-كيف خرج من السجن وهو يؤمن بوجود وطن آخر غير الصين
على تلك الأرض؟

والأغرب من ذلك هو رغبته في زيارة مكة والمدينة ليعتمر.

لم يكلم تامر علي بعد ذلك وطوال الطريق رغم أن علي حاول مرارا أن يتقرب إليه وبشقى الطرق، فقد أيقن تامر أن علي يد لرجال الأمن وهو يريد أن يحصل منه على شيء ما، لذلك تم احضاره ليتتبع أثره إلى غاية وصوله إلى السعودية.

رجل الأمن كان قريبا جدا منهما وكلام علي خطر للغاية إلا أن علي لم يُعتقل، كل ذلك عزّز شكوك تامر وجعله يُعرض عن علي طوال الطريق.

وعلي لم يكن يفهم سرّ تلك المعاملة السيئة من تامر وهما نزيلين سابقين في زنزانة واحدة.. ودينهما واحد..

رغم إعراض تامر إلا أن علي بقي يقص عليه أحاديث طويلة وإن لم يجد أي رد، أحيانا يرفع صوته وأحيانا أخرى يهمس في أذن تامر.

حدثه عن مدينة أوروتمشي وأن هذه الكلمة منغولية وتعني المرعى الجميل.

وأن الصين تعمل ليل نهار على طمس المعالم الدينية والثقافية للمدينة.. من خلال بناء الأبراج الشاهقة والشوارع الواسعة

والجسور المعلقة، والواجهات أصبحت بلغة صينية وأحيانا
ترجم تلك الكلمات باللغة الأويغورية وبحروف عربية صغيرة.

قال له أن الكثير من المساجد والكنائس هنا تم هدمها.. والقليل
المتبقي منها تم تحويله إلى ثكنات ومخازن للأسلحة.. لأن الصين
ترى أن دور العبادة في شينجيانغ تهدد لأمنها القومي.

كان كلامه عجيبا للغاية فأني جاسوس هذا الذي يتهم وطنه بأنه
مجرم؟ كيف يعمل لصالح الصين دون أن يمجد صنيعها؟ ومع
ذلك لم يظهر تامر أي انفعال وظل ساكتا.

أخبره أن كل شيء يرمز لهوية أخرى غير الهوية الصينية في
شينجيانغ يجب أن يُمحى.. وكل ثقافة غير ثقافة قومية الهان
يجب أن يبدل.

شعر تامر بصداق شديد وأمسك رأسه بكلتا يديه وأشاح بوجهه
عن علي.. ونظر من نافذة القطار ليرى أن كل شيء في أورومتشي
كان يرفض التزييف أو هكذا بدى له.

الأرض أرض المسلمين ونهرها الرقراق الذي يقسمها نصفين لازال
يذكر أمجادهم.. والبحيرة السماوية أو بحيرة تياننتشي الشفافة

تذكر كل بطل شرب من مائها العذب.. وجبل بوغدا الذي تعيش
به قطعان حيوان القُطاس يشهد على ذلك ويحفظ في قممه
ثلجا لا يذوب ومعه هوية تركستان الشرقية التي لن تذوب أيضا
في أي هوية أخرى، (احتلت الصين تركستان الشرقية سنة
1949م)

المشهد الخامس عشر

الخطبة البديلة عن الزواج عنوة.

مع إشراقة يوم جديد كان الضابط لي يقوم بجولة صباحية في مدينة توربان بمركبته الخاصة.. فقد ضاق صدره من جدران مكتبه.. لذلك خرج ليسرح بذهنه بعيدا دون إزعاج.. وليفكر بصوت مسموع دون خوف.

ربما ليست جدران ذلك المكتب هي المذنبه.. الذنب ذنب جيفنك الفتاة التي سلبته سلامه الداخلي وأشعلت حربا داخله ضد المتمردين ومعهم، فحبيبته متمرده.

هو يشعر بالضيق أيضا لأنه لم يرها منذ أيام، هو مشتاق لقرنها كما هو مشتاق لجو العائلة الذي حُرِمه طيلة حياته، عزائه الوحيد أنه أحب امرأة يمكن أن تكون له وطننا وليس عائلة وحسب، واستطاع أن يعترف لنفسه بأنه أحبها وعرف بالذات ما الذي يريده منها.

إنه يريد أن يسكن قلبها كما سكنت قلبه.. أما جسدها فلم يكن بعد قضيتته.. يمكنه أن يصل إلى ذلك الجسد الليلة إن شاء، ولكن أي قوة ستسمح له بأن يلج قلبها دون أن يرغمها على شيء؟

كيف يحدثها؟ كيف يقنعها بحبه دون أن يقول ذلك؟ ودون أن يتنازل عن كبريائه؟ كيف يكون ذلك وهي تراه عفريتاً ترجوا الخلاص منه لنفسها ولأهلها؟

هو ضابط ملحد ويريدها زوجة له ويعلم يقينا أن الأويغور لا يزوجون بناتهم لغير المسلمين إلا بالإكراه وبسطوة القانون.

نعم بإمكانه وبسطوة القانون أن يتزوجها عنوة.. وأن يدخلها الإلحاد أيضاً، ولكنه حينها سينال جسدها دون قلبها.. وينال أيضاً مكافأة مالية مغرية من السلطات نظير زواج رجل من الهان بامرأة من الأويغور.

لذلك الفقراء والمجانين والمعتوهين من رجال الهان يسارعون إلى طلب بنات الأويغور للزواج.

فطلبهم لن يرد والسلطات ستتكفل بالمال والعمل والرعاية الصحية أيضا مكافئة للعريس المخلص للوطن، والفتاة التي ترفض تسجن هي وأهلها ويعذب الجميع والتهمة معدة سلفا (تطرف حاد).

لكن الضابط لي لا يريد جسدها لوحده لو كان يريد ذلك لما فكر في الزواج منها.

إرغامها على الزواج بتلك الطريقة المذلة بالنسبة للضابط لي تنازل عن ذاته وضرب لشخصيته، ذلك بالنسبة إليه لا يصلح حتى ليكون حلا أخيرا حين يعجز عن إيجاد الحل.

ليتزوجها يجب أن تطلب هي ذلك.. أو على الأقل يجب أن يضمن أن طلبه لن يرد ودون الحاجة لسلطة القانون.. ليصون بذلك كبريائه.. وذلك يحتاج الكثير من التفكير والكثير من المكر.

كان يومها يريد أن يزورها بإلحاح أشد من إلحاح ورغبة الزيارة الأولى.. ولكنه لا يريد أن يخطئ مرة أخرى فقد تلقى أول إنذار له بسبب ذلك السائح السعودي.

ودون قصد منه وصل إلى بيت جيفنك وكان مركبه قريبا من بيتها حين تساءل:

- ماذا لو كنت محط أنظار أسماك الأعماق بعد الخطأ الأول.

ما الذي سيقول للمسؤولين عن كثرة تردده على بيت موجان؟ كيف سيقنعهم بأنه لم يلاحظ على عائلة موجان أي علامات تطرف؟ وبدأ يشعر بالخوف على جيفنك أكثر من شعوره بالخوف على نفسه.

هو يعمل منذ مدة على خطة بديلة.. بل منذ عرف جيفنك وهو يعمل على تلك الخطة التي تضمن له قربها والسيطرة عليها وعلى أهلها كما يحلو له.. لكن بقوة ناعمة.

علمه جهاز الأمن أن معالجة المشاكل بكفاءة لا يكون إلا بتعدد الخطط وبالعمل عليها جميعا في نفس الوقت.

خطة ما يمكن أن يتسلل بها إلى قلبها.

طريقة ما يضمن بها وصول المال اللازم لعائلة موجان لكي لا تخرج جيفنك للعمل وللرقص معا.. هو لا يزال يذكر كم دفع

للمسؤول عن مشروع الجمال والتمدن مقابل إعفائها من الرقص في الشوارع.

هو يريد أن تصله أخبارهم أولا بأول دون أن يزورهم ودون أن يرسل إليهم أي فردا من أفرادهم.. ودون أن يضع لهم كاميرات مراقبة.. فهو يخشى أن تتسرب أي معلومة لأي جهاز أمني عن عائلة موجان شديدة التطرف.. فيخسر بذلك حبه كله.

كان قريبا من بيتها صباح ذلك اليوم ولكنه لم ينزل من مركبته ولم يقترب من الباب والمفاتيح في يده.. كان بإمكانه أن يدخل إلى ذلك البيت الذي تسكنه حبيبته وأن ينظر إليها كما يحلو له ولكنه لم يفعل ذلك.

رفع صوته وهو يحدث نفسه متسائلا:

- كيف سمحت لقلبي بأن يتعلق بها إلى هذا الحد؟

ولكنه لم يجد لذلك جوابا كما لم يجد جوابا عن سبب تعلقه المفاجئ بالحرف العربي المزخرف الذي تكتب به اللغة الأويغورية.

ما الذي يذكره به؟ ما الشيء المخزّن في ذاكرته عن هذا الحرف
والذي يعجز عن تذكره؟ بعد طول تفكير لم يتذكر الضابط غير
اللوحة التي رسمها موجان وتركها لي على مكتبه فتحرك حينها
بسرعة.

يُدق الباب فيدب الرعب في أرجاء البيت ويتوجه موجان بخطى
متثاقلة ليفتح الباب كالعادة لضيف غير مرغوب فيه.. لا يمكن
طرده ولا يمكن الخلاص منه.. بينما ظلت رحمة وأمهما يطلان
من خلف باب غرفة موارد.

فتح موجان باب البيت وكاد يقع أرضاً لشدة الدهشة التي
أصابته بمجرد أن وقعت عيناه على الضيف.. وجلس أرضاً يبكي
بحرقة.. لتسرع الأم وابنتها إليه غير أنهما لم يحملانه من الأرض
بل احتضنتا الطارق حين وقعت عينيهما عليه.

وانكب محمود على رأس والديه يقبلهما.

واختلطت دموع الفرح بدموع الحزن، فالفرحة لا يمكن أن تكتمل.. فالجميع على علم بأن محمود جاء إلى حتفه برجليه لذلك بكى موجان على ولده قبل احتضانه.

بكى لقرب ولده كما بكى من قبل على فراقه ولسنوات طويلة.

فلا أحد عاد بعد 2017م من الأزهر الشريف دون أن يعتقل ويعذب.. ولا أحد عاد من بلد عربي إلا وفعل به مثل ذلك.

مرّت سنوات لم ترى الأم ولدها محمود ولم تسمع صوته ولم تصلها أخباره.. كانت تعتقد بأن السلطات رحّلت من مصر إلى معسكرات إعادة التثقيف كما فعلت مع أغلب طلاب العلم الأويغور الذين درسوا في الأزهر.

سألته الأم بلهفة دون أن تزيج ناضريها عن صفحات وجهه.. ورحمة تتعهد الباب وتتأكد من إغلاقه بإحكام:

- لما جئت من الأزهر؟ وهل أكملت الدراسة؟ وكيف لم تعتقل في المطار؟ أو في أي حاجر أمني؟ وكيف استطعت أن تصل إلى تروبان وإلى بيت والديك سالما... الخ؟

كانت أسئلتها كثيرة بشكل لم تتح فيه فرصة له ليجيبها.. وهو أيضا لم يكن يريد أن يجيبها عن أي شيء.. لذلك اكتفى بقوله:

- لا عليك يا أمي كل شيء على ما يرام.

أرادت أن تعيد عليه كل تلك الأسئلة فهي تعرف أن ابنها يحب الاسترسال في الحديث، تعرفه جيدا وإن فرقتهم السنين، الظلم والمسافات.

لو كان على ما يرام كما قال لكان أجاب على كل تلك الأسئلة.. دون أن يغفل عن أي شيء طلبت أمه معرفته، ودون أن يترك التفاصيل أيضا هكذا هو عهدا به.

صوتٌ داخلي كان يقول لها أن ابنها يُخفي شيئا ما.. وحده الأم لم يكن يوما ليخطئ.

تركت الأم تلك الأفكار وتلك الظنون جانبا لتعيش اللحظة.. ولكي لا تفسد على نفسها فرحة رؤية ولدها المنقوصة أصلا.. فوجوده قد لا يطول.

سارت الأم مع ولدها خطوات وهي تحت ذراعه اليمنى وموجان عن يساره.. ورحمة خلفه تلفه ذراعاها.

جلس الجميع في غرفة الضيافة وكان محمود في كل مرة هو المبادر بالحديث وبالسؤال عن أحوالهم جميعا.. ليتجنب الإجابة عن استفساراتهم.

سأل إن كانت رحمة قد انتهت دراستها، وعلم حينها أنه لم يُسمح لها بالدخول إلى الجامعة بسبب ارتدائها للحجاب.

أخبرته الأم أيضا أن ابن عمه حبيب الله اعتقل في يوم خطبته لرحمة ولم يُسمع عنه بعد ذلك أي خبر.. ولم تخبره الأم أن رحمة اضطرت للعمل وللرقص في الشارع.. ولم تخبره أيضا عن ذلك الضابط الغريب الذي يزورهم باستمرار.

لم يطل الوقت قبل أن يستأذن محمود من الجميع ليرتاح قليلا فالتفت كان طويلا، طلبت منه رحمة أن ينتظر قليلا لتأخذ بعض الأغراض من غرفتها.. ولتعد تلك الغرفة لأخيها.. فليس في البيت سوى غرفتين ومطبخ وصالة ضيافة.

توجه محمود إلى المطبخ ليشرب قليلا من الماء في انتظار أن تكمل رحمة عملها.. ورافقته الأم إلى المطبخ لتكون قريبة منه تدفعها أشواقها إليه ورغبتها السرية في إخفاء الرجس الموجود في المطبخ.. فولدها أكثر أفراد العائلة تدينا.

لكنها اندهشت حين رأته يحمل قارورة الماء التي كانت بجانب قوارير الخمر دون أن يسأل أمه عن سرّها.. وفشلت الأم حينها في إخفاء تلك القوارير كما فشلت في فهم ولدها.

توجه بعدها محمود للنوم دون أن يقول أي كلمة وجلست الأم قرب موجان تشكوا إليه غرابة تصرفات ابنها.

حاول موجان حينها أن يطمئنها لكي لا يزيد شكوكها وهو غير مطمئن.. لأنه لم يفهم كيف حلق محمود لحيته وترك لباسه التقليدي.

مرّت ساعات ذلك اليوم واليوم الذي يليه عصبية على موجان وزوجته.. فمحمود رجل متدين وخريج الأزهر لكنه لم يكن يخرج من غرفته إلا لتناول الطعام أو ليقضي حاجته ثم يعود إليها.

لم يتوضأ منذ يومين ولم يصلي ركعة واحدة ولم يقرأ آية من القرآن وأصبحت شكوك موجان وزوجته كابوسا لا يطاق.

المشهد السادس عشر

كاشغر.. التخلص من الثقل الحضاري لصالح الأمن
القومي.

سبعة عشر ساعة قضاها تامر في ذلك القطار.. فكاشغر تبعد
ألفا وخمسة مئة كلم عن عاصمة الإقليم.. وقبل وصوله إلى
المحطة الأخيرة مرّ القطار بمدینتی أقسو وأرتوش.

الرحلة كانت طويلة جدا ومتعبة ولكن جمال تركستان الشرقية
المحتلة.. أو شينجيانغ أو الحدود الجديدة كما تسميها السلطات
الصينية يستحق كل ذلك التعب.

جمال مدنها لا نظير له وليس يشبهها شيء سوى عيون جيفنك
الفتاة الحیّیة الراقصة.

نسائم المدن هنا تذكره بعطرها.. والماء العذب بصفاء وجهها..
والثلج الذي يغطي شيئا من قمم جبالها يشبه المنديل المزخرف
الذي يغطي جزءا من شعرها، وحتى الطيور التي تترنج على
أغصان أشجارها ترقص رقصها.

لم يعد يرى تامر شيئاً جميلاً إلا و تمزجه مخيلته بملامح جيفنك، تذكرها مرارا في رحلته تلك.. تمنى لها حياة أفضل.. ودعا لها كثيراً.. فهو لا يملك لها غير ذلك.. وتمنى رؤيتها مرة أخرى رغم أنه لن يعود إلى شينجيانغ أبداً بل إلى الصين كلها.

- تامر هيا احمل امتعتك لقد وصلنا إلى كاشغر.

تلك كانت كلمات رجل الأمن وهو يطلب من تامر النزول بسرعة لإكمال الرحلة الطويلة.

لم يكن رجل الأمن في الحقيقة مستعجلاً فكلما كانت الرحلة أطول كلما استطاع أن ينقذ ما هو مطلوب منه بدقة.. لكنه استعجل تامر بالنزول لأنه رآه متأثراً بشدة حين اعتقلت الشرطة علي أدينان.. والخطة تقتضي بأن يصل تامر إلى بلده بذاكرة خالية من كل شيء سلبي عن شينجيانغ.

أصاب تامر الذهول وهو ينزل من ذلك القطار.. فهو لم يعد قادراً على فهم سبب إطلاق سراح علي من قبل.. ولا قادراً على فهم سبب اعتقاله مجدداً وإجباره على التنقل إلى العراق.

نعم.. هو متأكد من أنه سمع رجال الشرطة وهم يتحدثون عن نقله إلى العراق من خلال إيران وقبلها أفغانستان.. ومن خلال أحد خطوط الحزام والطريق.. ولكن لا أحد كان يعلم ما الذي يدور في أذهان رجال الشرطة.

لما لم يعتقل علي ويوجه إلى معسكرات إعادة التثقيف؟

تامر أصبح متأكد أن علي لم يهرب من تلك المعسكرات وإنما أُخرج منها، غير أن الوجهة التي اختارها علي لم تكن لتناسب خطة رجال الأمن.

- لكن لما العراق بالذات؟

يتساءل تامر.

كل شيء في هذا الإقليم مهم جدا فبالكاد يفهم تامر شيئا حتى يتيه في أشياء أخرى أكثر غموضا.

هو لا يزال يُقلب في ذهنه قول أمه أنها في أورويمتشي، إن كانت جاءت إليها لأجله لما لم يأخذه للقاءها والعودة معها؟ ولما العودة إلى الوطن برا؟ أم أنها جاءت لأجل زراعة كلية لأخيه؟

- نعم كيف نسيت ذلك؟

حين تذكر تامر زراعة كلية لأخيه وقف مذهولا دون حراك وهو يحاول أن يربط الأحداث ببعضها، فحالات الإعدام تمت في نفس فترة تواجد أمه بعاصمة الإقليم والرصاصات كانت تستقر في الجهة اليمنى لصدور الأويغور ليكون الموت بطيئا.

حتى تلك الوثائق التي كان رجال الأمن يجبرون السجناء في معسكرات إعادة التثقيف على توقيعها دون علمهم بفحواها.. تذكرها تامر في لحظة الذهول تلك.

- ولما تلك المقبرة الشاسعة إذن أمام تلك البناية الضخمة التي أعدم فيها رجال من الأويغور؟

يتساءل تامر

فالصينيون يحرقون جثث موتاهم والأحياء من مسلمي الأويغور لا حقوق لهم.. فكيف يكون لموتاهم حق في الحصول على قطعة أرض توارى أجسادهم ووفق تعاليم دينهم؟ لمن هذه المقبرة الضخمة إذن؟

كل هذه الأفكار والخواطر لم يعد ذهن تامر قادرا على استيعابها.. والصداع أصبح يشلّ تفكيره.

وحتى هذا الصداع المتزايد باستمرار لا يعرف تامر سببه.

لم يعد له سوى قلب حي مليء بالأحزان لأجل علي ولأجل كل الأويغور.. واشتدت رغبة تامر في أن يعتذر لعلي عن سوء ظنه به، ولكن لم يعد ذلك ممكنا بعد أن تم توجيهه للعراق.. ولم يعد ممكنا سماع أشياء جميلة عن هذه الأرض الطيبة.

تذكر تامر أن علي قال له من زار شينجيانغ ولم يزr كاشغر فكأنه لم يزرها.. ومن زار كاشغر ولم يرى مسجد عيد كاه الكبير.. فكأنه لم يرى شيئا.

قال له أن عيد كاه معناها الشرف الرفيع.. وأن عمر هذا المسجد الذي يحب الأهالي تسميته بمكة الشرق يقارب الستة قرون، ويصلي فيه عشرات الآلاف من الأويغور ولكن ذلك كان قبل 2017م.

فالمساجد التي لم تهدم بعد أصبحت حزينه يدخلها السياح ومن تجاوز الستين سنة من الأويغور فقط.. هكذا يقول القانون.

- تامر.. تامر.. تالامر فيما تفكر؟

انتبه تامر حينها إلى أن ذهنه سرح بعيدا وهو واقف في مفترق الطرق، وطلب لحظتها من المرافق أن يستريحا في أي فندق قبل إكمال الرحلة.. فقد عاوده الصداع مجددا.. ورنين أجراسٍ في أذنيه.

لكن رجل الأمن رفض ذلك فبرنامج الرحلة حُدد بدقة والمبيت سيكون الليلة على الحدود مع باكستان.. ولم يعد هناك الكثير ليصلا إلى منطقة بلتستان الحدودية.

لم يزعج تامر كثيرا فهذه فرصة ليشاهد أجمل ما في هذه المدينة قبل أن يحلّ الظلام، هو يريد أن يعرف أكثر عن كاشغر التي سيودع بعدها تركستان الشرقية، ويودع مدينة ازدهرت قديما بطريق الحرير والطريق ازداد تألقا بمروره عليها.

لاحظ تامر أن كاشغر متفردة بثقافة الأويغور، وأن الشيء الذي يجمعها مع بقية مدن شينجيانغ هو الصراع الواضح وغير المعلن بين الحداثة والأصالة، فوتيرة التغيير سريعة للغاية على حساب

البنائيات القديمة التي يتم التخلص منها.. والتخلص من ثقلها الحضاري لصالح الأمن القومي.

نام تامر ليلته الأخيرة على الحدود بين شينجيانغ وباكستان تتخطّفه أفكار متضاربة.. فهو الذي عشق الصين وتأثر بثقافة شعبها الذي استطاع أن يحوّل البلد الفقير إلى مصنع للعالم.

لذلك زار تامر كل أقاليمها.. وكل إقليم كان ينسبه في غيره من الأقاليم للمتعة التي حصل عليها، إلى أن أنساه آخر تلك الأقاليم كيف يبتسم، كيف يضحك، كيف يغني وكيف يُراقص الجميلات أيضا.

ورغم كل تلك الهواجس كان يجب عليه أن ينام فالغد يحمل في طياته الكثير.

يحمل معه رحلة مجنونة من بلتستان شمال باكستان إلى ميناء غوادر جنوب هذا البلد.. والمسافة بين النقطتين حوالي 3 آلاف كلم، والرحلة على هذا الطريق ستستمر يومين وليلتين دون توقف ليصل إلى الميناء.

هو طريق يربط الصين بباكستان.. طريق خيالي وتحفة هندسية تتجاوز الخيال.. ويمر بتضاريس صعبة للغاية خصوصا منه الجزء الذي بني عند بحيرة عطاء آباد.

المشروع عبارة عن شبكة طرق وسكك حديدية لنقل البضائع، بالإضافة إلى خطوط أنابيب البترول والغاز، فهو طريق ينقل البضائع الصينية إلى إفريقيا والشرق الأوسط.. ويزود الاقتصاد الصيني بالمواد الطاقوية.

حين مرّ تامر على ذلك الطريق وعلم بأن كل تلك الطرق والجسور والسكك الحديدية والميناء شيدته الصين ودفعت لأجل ذلك 46 مليار دولار فهم كيف دخل باكستان دون حاجته لأي تذكرة أو تقديم أي وثائق ثبوتية للهوية.. فرجل الأمن الصيني كان برفقته وهو الذي تكفل بكل شيء.

فهم تامر بعض الأشياء.. ولكن لم يكن قادرا على استيعاب أو معرفة كيف سيكون العالم بعد أن تبني الصين طرقا مشابهة في أزيد من ستين دولة لإتمام مشروع الحزام؟

طرق وجسور وموانئ ومطارات وجزر اصطناعية ليكتمل حلم الطريق الواحد والحزام الواحد.. وقبل ذلك يجب أن تدفع الصين أكثر من ستة آلاف مليار دولار ليتحقق مشروعها وحزامها المجنون.

والحزام لا يمكن أن ينطلق إلى العالم ليلف خصره دون أن يمرّ غربا من تركستان الشرقية (شينجيانغ)، ولا يمكن أن يمرّ إلا على بحيرة من دم المسلمين الأويغور الذين يؤمنون بوجود وطن غير الصين على الأرض ذاتها.

المشهد السابع عشر

أسماء الأعماق تسبح بين الابن ووالديه.

دفع موجان بمدخرات حياته كلها لولده محمود ليرسله إلى
الأزهر

الشريف لتلقي العلوم الشرعية من منبعها.

حفظ محمود القرآن مبكرا وكان موجان يحلم برؤية ولده عالما
من علماء المسلمين.. وقدوته وقدوة الأويغوريين جميعا هو
جدهم الإمام البخاري.

موجان لم يكن الوحيد الذي أرسل ولده إلى الأزهر فجميع
الأويغور أو البخاريون كما يسميهم سكان الخليج العربي.. يدّخرون
المال للحج أو لإرسال أولادهم لمكة أو للمدينة أو إلى الأزهر.

عاش موجان سنوات طويلة وهو حزين على فراق ولده الوحيد..
لكنه لم يكن يرجوا أن يعود إليه خوفا عليه من الاعتقال.. ولم
يخطر على باله أنه سيكون حزينا لرؤيته، ليس لأنه سيعتقل

ولكن لأن ولده عاد ممسوخ الهوية تاركا لدينه.. أو هكذا بدى لموجان ولزوجته.

دفع به إلى الأزهر ليعود إليه أكثر علما وأكثر إيمانا وأحسن خلقا وعملا.. فعاد إليه أسوء مما كان عليه قبل مغادرته توربان أول مرة.

خرج محمود من البيت على الساعة العاشرة صباحا وهي عادته منذ رجوعه من الأزهر.

سيعود بعد ساعتين حاملا بعض الأغراض ويلزم غرفته ولا يخرج منها إلا لتناول الطعام.. وكان موجان في انتظاره يومها، هو يعرف وقت عودته بالتحديد.

لم يعد موجان قادرا على السكوت أكثر.. لا بد أن يعرف كل شيء عن ولده.. وعن تركه للصلاة وقراءة القرآن.

يريد موجان أن يعرف أيضا من أين يحصل محمود على الأموال ليشتري يوميا تلك الأغراض الثمين.. وعدم اعتقاله من قبل رجال الأمن حتى الآن لم يعد أمرا مفرحا بالنسبة إليه بل مصدر شكوك.

تنادي جميلة على زوجها:

- موجان تعالي بسرعة.

توجه الرجل الطاعن في السن إلى الغرفة التي ينام فيها محمود ولحقته رحمة.. ليجدا الأم تنظر إلى ثياب ولدها باستغراب، مدت رحمة يدها إلى أزرار قميص محمود وعلتها حينها الدهشة وظلت ساكتة لبرهة.

أراد موجان أن يقطع ذلك السكوت وهو يشير بأصبعه لثياب ولده ويحاول أن يقول شيئاً ما ولسانه يتلعثم.

- هل هي لك.. لك.. كامير..!

لتجيبه رحمة وتزيد حينها من شكوكه وحزنه معا.. قائلة:

- نعم إنها كاميرا مراقبة وأجهزة تنصت وأدوات للتجسس عالية الدقة.

- يتجسس على من؟ ولصالح من؟

يرد عليها موجان وهو غير مصدق.. ولكن لا أحد استطاع أن يجيبه هذه المرة وعلى هذا السؤال بالذات.

سكت الجميع وتوقفوا دون حراك قبل أن يتركوا تلك الثياب ويغادروا الغرفة.. فقد شعر موجان بضيق في الصدر وبصعوبة في التنفس.

أمسكته زوجته وابنته وأجلساه أرضاً.. وأخذ حينها يفكر في كل المصائب التي تتوالى عليه وعلى أهل بيته.. ويفكر في طريقة ما يواجه بها ولده محمود.

كان يريد أن يعرف لما ترك محمود الصلاة وترك الالتزام والآن ما عاد يريد أن يعرف شيئاً عن ذلك.. ولا عن مصدر الأموال التي ينفقها وهو يرى أن ولده جاسوس، دون أن يعرف لصالح من يعمل؟ ومن الذين يتجسس عليهم؟

هو يريد أن يعرف فقط سرّ تلك الكاميرات في أزرار قميص ولده. عاد محمود بعد ساعتين كعادته.. ولكن لم تبتسم له الأم ولم تقبله كعادتها.. ولم تخرج رحمة من المطبخ لاستقباله.. ولم يلتفت موجان إليه بل ظل جالسا دون حراك.

شعر محمود أنه دخل بيتا غير بيته وأن أهله ليسوا أهله.. فتصرفاتهم غريبة للغاية، دخل غرفته بعد أن وضع بعض المقتنيات في المطبخ ودون أن تحمل رحمة عنه تلك الأكياس.. ودون أن تشكره أو تقول أي كلمة.

تذكر حين دخل غرفته أنه نسي إخفاء أجهزة التجسس قبل خروجه من البيت وشعر أن أحدا ما يمكن أن يكون قد رآها.. وربما هذا الذي يفسر تصرفات أفراد عائلته وعدم مبالاتهم بعودته يومها.

ظل يفكر طويلا كيف سيعرف إن كانوا قد رءوا تلك الأجهزة؟ وكيف سيواجههم لتقطع عليه أمه استرساله في التفكير قائمة من خلف الباب ودون أن تدخل:

- الطعام جاهز.

خرج محمود من غرفته ليجد أطباق الطعام على الطاولة ولكن لا أحد كان جالسا ليتناول تلك الأطعمة معه.. جلس وحده، أراد أن ينادي على أمه أو أخته أو والده ليشاركه أي أحد منهم

الطعام.. ولكنه تأكد أن أمره افتضح وأنه لا جدوى من المناداة على أي منهم.

لم يكن قادرا على المواجهة لحظتها ولكن لا بد منها ولا بد أن يعترف لأهله بكل شيء، وربما يجب عليه أن يحمد الله على افتضاح أمره مبكرا.. فالوقت مهم لنجاة عائلة موجان من الموت المحقق أو من العذاب في غياهب السجون.. التي لن يخرج منها أي أحد سالما إن دخلها.

ولكن كيف سيقول لهم أنه يتجسس عليهم لصالح الوطن؟

كيف سيبرر تصرفه ذلك؟ هل سيقول أن كل الأويغور الذين عادو من السعودية أو مصر وتساهل معهم الأمن تم تكليفهم بالتجسس على ذويهم.. والخيانة تعني الموت.

أم يقول لهم أنه مرغم وأنه يتوجه يوميا صوب مركز الشرطة ليقدم تقريراً عن أسرته.

عزائه الوحيد أن تقاريره كلها مزيفة.. يؤكد فيها للشرطة عدم التزام عائلته بأي تعاليم إسلامية.. ويعمل محمود جاهداً على تضليل الأمن والتشويش على الأجهزة التي يحملها؟

ترك محمود الطعام وبحث عن والده ليجده في القبو.. جلس إلى جانبه ودون مقدمات همس في أذنه قائلاً:

- يجب أن نزوج رحمة للضابط لي اليوم قبل الغد.. فحياتنا جميعاً في خطر.

التفت إليه موجان دون أن يقول أي كلمة فقد شعر أن ابنه فقد عقله، كيف يعرض عليه تزويج ابنته الوحيدة لرجل ملحد؟ وهو يعلم أن هذا حرام، ثم تساءل موجان سرا:

- كيف عرف محمود الضابط لي؟

حينها بدأ موجان يفهم لما اختفى لي لأيام عديدة.. وعرف سبب المشاكل.. وتأكد أن ولده ليس مجنوناً بل عميلاً للضابط.

ومحمود لم يكن يرى أن الضابط لي هو سبب المشاكل بل وسيلة للنجاة قد تكون الوحيدة.. ولكن قبل ذلك لا بد من التضحية بأشياء نفيسة.

ظل موجان ساكتاً ليكرر محمود عرضه لوالده فغضب هذه المرة بشدة.. وقال له كل الذي كان في نفسه، وأنه لو كان يعلم

أن ولده سيأتي بهذه الأفكار ما كان ليرسله يوما إلى الأزهر؟ وأنه ما كان يجب عليه أن يعود ليزيد من معاناته.

واحتد النقاش وارتفعت الأصوات عاليا.. لتلحق رحمة وأمها بهما إلى القبولتشاركا موجان في عتابه الطويل على ولده.

انتهى النقاش..

وعلى ضوء شمعة واحدة صلى أفراد عائلة موجان صلاة جماعة هي صلاتهم الأولى منذ سنين بعيدة، صلاة كانت لطلب العون من الله، صلاة جماعية لا يمكن أدائها في شينجيانغ في غير مكان مظلم تحت الأرض.

صلاة جاءت بعد شجار ونقاش حاد شارك فيه الجميع وقال كل منهم كل الذي في نفسه.. ولم يتركوا شيئا للتأويل.. وانتهى كل ذلك ببكائهم جميعا.. وبأحضان أشبه بأحضان الفراق.

لم تكن رحمة حزينه لقرار الأسرة بتزويجها من ذلك الضابط.. فهي مستعدة للتضحية إن كان زواجها سيكون سببا في نجات أهلها.

والزواج من الضابط عل كل حال أفضل من أن يتم إجبارها على تقديم الخدمات الجسدية في الكباريات بالمجان، أو الزواج من رجل مجنون أو معوّق أو معتوه من رجال الهان.

كانت القلوب متوجهة إلى الله أثناء الصلاة والعقول كانت سارحة تفكر في كل الذي قاله محمود وكل الذي حدث له.

علم الجميع كيف هدّته الأجهزة الأمنية كما هددت الكثير من الأويغور في الأزهر بأنهم إن لم يعودوا للوطن فإن حياة أحبّتهم ستكون في خطر، عاش محمود ضغطا نفسيا رهيبا قبل أن يستسلم ويقرر التضحية بحياته والعودة لأجل أهله.. رغم توسلات رفقائه في الأزهر بالعدول عن هذه الفكرة.

قال محمود:

- إن الضابط يملك ملفا ثقيلا عن تجاوزاتنا فردا فردا، وكل تلك التجاوزات سيخفيها إن صار واحدا منا.

سيسمح لهم بحرية أكبر في العبادة.. ولن يكون فردا من العائلة دون أن يكون زوجا لرحمة.. هذا الذي فهمه محمود فالضابط لي لم يطلب ذلك صراحة.

محمود لم يترك يوما الصلاة فهو يصلحها بالإيماء نائما كما يصلحها ملايين الأويغور الأحرار منهم.. أو المعتقلين في معسكرات إعادة التثقيف.. وهو لا يريد أن تكون أسرته رقما جديدا يضاف إلى كل أولئك السجناء.

كان أمام أسرة موجان حلّين.. الأول هو ترك الإسلام بالكامل.. والحل الثاني هو زواج رحمة من الضابط لي ليتستر على إسلامهم.. وإلا فالموت هو الحل المتبقي.

المشهد الثامن عشر

كل حزام يخفي عورة.

عند ميناء غوادر وقبل أن ينزل تامر من آخر قطار ليركب السفينة التي ستوصله إلى بلده عبر بحر العرب ثم الخليج العربي وقع أرضاً من شدة الألم الذي أحس معه بأن رأسه سينفجر.

نقل على إثرها إلى مقصورة خاصة داخل القطار وطلب منه رجل الأمن الذي رافقه بأن يأذن له بحقنه بإبرة ليزول ألمه.

لم يعترض تامر على ذلك إلا حين سمع أحد أفراد طاقم القطار يقول.

- أيها الطبيب هل تحتاج أي مساعدة؟

حينها فقط تغير مزاج تامر تماماً ورفض أن يتلقى أي حقنة.. فالتبيب أصبح في مخيلته قاتلاً مأجوراً، ولكن لم يكن بإمكان تامر أن يمنع ذلك الضابط الطبيب من إكمال مهمته التي جاء لأجلها.

قاوم تامر بكل قوته ذلك الطبيب ومن كان معه لمساعدته..
ولكن في النهاية تم تكبيله وإعطائه الحقنة المطلوبة، إنها الحقنة
الثالثة والأخيرة.

لم يكن الطبيب في حاجة ليضع منوما في طعام تامر قبل حقنه
كما في المرتين السابقتين فهي الحقنة الأخيرة التي ستتكفل بكل
شيء.. وبإمكان الطبيب أن يعود إلى بلده مطمئنا على سمعة من
أرسله.

فقد تامر وعيه فجرعة الحقنة الثالثة كانت أقوى الجُرع ونقل
إلى السفينة مباشرة.

حين استفاق كان أول سؤال طرحه:

- أين أنا وإلى أين أنا ذاهب؟

وكان الجواب:

أنت على سفينة باو جيان.. كنت في الصين وأنت الآن متجه إلى
بلدك السعودية.

كانت الأيام التي قضاها تامر في تلك السفينة صعبة.. فقد كان مشوّش الذهن مرهق البال.. كثير التقيؤ وكان الصداغ لا يفارقه، أخبره الطبيب في تلك السفينة بأن هذه الأعراض طبيعية وكلها ترجع لدوار البحر.

لم يقتنع تامر بتلك الكلمات ولكن لم يكن أمامه إلا أن يصدق ما قيل له.

وصل إلى بيته على ذلك الحال.. كانت أمه وأخته فاطمة في استقباله، ضمته الأم إليها وهي تنظر إلى وجهه وهي غير مصدقة كيف لم تلحظ أي أمارات سرور عليه حين رآها.. وهي تعرف شدة حبه لها.

لم تفهم الأم لما لم يقبل تامر يدها؟ لما لم يعضها أيضا كما كان يحب فعل ذلك رغبة منه في إدخال السرور إلى قلبها؟ وحين يطول غيابها عنها كان يحملها كطفلة صغيرة للتلطف بها، لكنه اليوم عاد شارد الذهن جاحظ العينين.

شعرت بأن الذي أمامها ليس ولدها بل جسد ولدها دون روحه ودون مرحه.

ابتسم لأخته ابتسامة مقتضبة حين قبّلتها ثم سار بعدها خطوات نحو غرفته في الطابق الأول.. ليلتفت إليها مرة أخرى وتصرّ بصره في ملامح وجهها.. وقد شعر أنه في حاجة ليقول لها شيئاً ما ولكنه لم يستطع أن يقول ولو كلمة واحدة.

لسانه تلعثم.. اقتربت أخته منه وهو يحاول مرارا قول شيء تذكره.. ولكنه في الأخير لم يتفوه بكلمة بل أمسك رأسه بكتلات يديه واتجه صوب غرفته.

لحقته أمه وأخته لتحاولا فهم ما به وما الذي جرى له؟ وكيف فضّل التوجه صوب غرفته بدل البقاء بقرعهما؟ ولما لم يسأل عن أخيه الذي تركه طريح الفراش؟ ولكنهما لم يحصلوا منه على أي شيء.

زاره طبيب العائلة مساء ذلك اليوم غير أنه لم يسمح له بالاقتراب منه إلا بعد إعطائه منوما.

قال الطبيب بعد أن فحص تامر ولم يعثر على أي آثار جروح أو ضرب:

- إن تامر تعرّض لصدمة نفسية قوية أثرت سلبا على عمل بعض وظائف دماغه.

واستبعد أن يعود إلى حالته الطبيعية في الوقت القريب.

وقبل المغادرة أوصى الطبيب بإجراء بعض التحاليل والأشعة الطبية لتامر وتركه يستريح.

توجهت الأم بعدها لتفتش أغراض ولدها ولتقلب فيها عن شيء ما يوصلها لفهم حالته.. لكنها لم تجد فيها سوى أغراضه التي أخذها معه قبل سفره هذا.

فتامر لم يشتري أي تذكّار.. ولم يلتقط ولو صورة واحدة.. ولا وجود لأي وثائق مع أمتعته.

لا وجود لأي تذاكر للركوب أو لدخول أي مطاعم، لا حجوزات لأي فندق، وكأن الحقيبة حقيبة مقيم لا حقيبة مسافر.

ليس في حقيبته سوى جواز سفره مدون عليه غادر الصين صوب باكستان برا.. لم تهتم الأم لذلك فهي تعرف حب ولدها

للسفر ولكنها لم تستطع أن تفهم لما جاء إلى السعودية من باكستان بحرا؟ وهي تعرف أنه يخاف ركوب البحر.

لم تنم الأم ليلتها تلك وهي تفكر في حالة ولدها.. وشكوك كبيرة تحوم في ذهنها حول تعرضه للاعتداء وإن لم يجد طبيب العائلة أثرا لذلك.

أجرت اتصالها بالشخص الذي تعرفه في سفارة بلدها في بيكين لعلها تجد عنده تفسيراً لحالة ولدها.. لكنها لم تحصل منه على إجابة شافية.. غير أن تامر دخل مناطق خطيرة داخل إقليم شينجيانغ.

قال لها مستشار السفير:

- إن أصدقائنا الصينيين فعلوا كل ما بوسعهم لإيجاد تامر وترحيله إلى وطنه.. وبراً مثلما طلب تماماً.

أنهت الأم مكالمتها وشكوكها لم تنته.. ولم تكن هذه الشكوك قد بدأت في لحظة رؤيتها لولدها ولا حين فتشت حقيبته ولكن بدأت عند دخول تامر لشينجيانغ.

هو لم يكلمها إلا بعد أيام من دخوله لذلك الإقليم.. ومكالمته لها لم تدم أكثر من دقيقة واحدة، ليختفي وتغيب أخباره لأكثر من أسبوعين، ليكلمها حين وصلت هي إلى شينجيانغ وبعد بحث طويل عنه مستعينة بوساطاتها.

تساءلت الأم لما كانت تلك المكالمة أيضا قصيرة ومقتضبة بعد غيابها الطويل ذاك؟ ولما سارع إلى إغلاق الخط بعد أن عرف أنها في ذلك الإقليم؟

لما لم يأت إليها ليغادرا معا في رحلة جوية؟ لما فضل ركوب البحر على غير عاداته؟

في صباح اليوم التالي لم تنتظر الأم تامر ليستفيق بل بادرة بإيقاظه متحججة بموعد صلاة الصبح.. لتسأله عن كل الذي دار في ذهنها.. عن كل الأشياء المهمة التي لاحظتها عليه وعلى تصرفاته.

لكنه لم يجيبها عن أي شيء.. وقد كان من قبل يحب أن يقص عليها مغامراته قبل أن تبدأ هي بالسؤال.. واليوم يعجز عن تذكر أي شيء وإن بدت عليه ملامح تحسن صباح ذلك اليوم.

أحيانا يقول لا أدري.. وأحيانا أخرى يقول لا أذكر.. وحين تُكثر عليه بالأسئلة يتساءل هو أيضا.

- وهل زرت أنا تلك الأماكن؟

ولم تجد الأم طريقة أخرى غير أن تقص عليه هي شيئا مما رآته في ذلك الإقليم علّه يذكره بشيء ما.

حدثته عن طيبة سكان ذلك الإقليم وعن الابتسامة التي لا تفارق وجوههم.. وعن حبه المفرط للرقص الجماعي في الشوارع.

حدثته عن انبهارها بالصين وبالتقدم الحاصل فيها في شتى المجالات خصوصا الطبية منها.. وأنهم تجاوزوا العالم كله في مجال زراعة الأعضاء.

أبدت إعجابها الشديد بالحرية المطلقة التي تضمها الصين للعبادة ولمختلف الطوائف والأديان، و وصفت له قاعات الصلاة الفخمة التي وجدت في ذلك المستشفى..

كان حديثها طويلا عن الصين وتامر كان يمعن السمع، النظر والتفكير.. يتلقف كلماتها الواحدة تلوى الأخرى باحثا عن ذاته بين تلك الكلمات.

قالت الأم لولدها:

- إن احترام الصينين للإنسان بلغ حد إنشاء مقبرة مخصصة للمسلمين وللعرب القادمين إليها للعلاج.

أولئك الذين يتوفاهم الله هناك ولا يرغب ذويهم في نقل جثثهم إلى أوطانهم الأصلية، ولا تحرق الصين جثثهم احتراما لمشاعر ذويهم.

كانت كلمات الأم الأخيرة مؤثرة جدا عليه أكثر من تأثره عند حديثها عن زراعة الأعضاء.. وعن الصلاة، واضطر تامر لضم رأسه لصداع شديد شعر به.

توقفت الأم حينها عن استجوابها له وعن حديثها عن ذلك الإقليم وقد رأت أن حالته بدأت تسوء وأنه كان أحسن قبل أن تكلمه.

غيّرت الموضوع تماما.. وبدأت حالة تآمر في التحسن بالتدريج.. إلا أنه سرعان ما عاد لضم رأسه بشدة لحظة دخول أخته عليه صباح ذلك اليوم، لشعوره برغبة في قول شيء ما دون أن يعرف ما هو ليشتد حينها الصداخ والصراخ معا.

المشهد التاسع عشر

ليلة الحلم والاثم.. مع الرجل الخطأ.

جلس موجان على أريكة في بيت الضابط لي يفكر في زواج ابنته من رجل ملحد، كان يشعر بغصة شديدة في قلبه، حاول مرارا ودون جدوى أن يخفف عن نفسه ذلك الشعور المؤلم.. وهو يحدثها بأن هذا هو الحل الوحيد للنجاة.

على الأقل يومها استطاع أن يصلي مع زوجته وابنه دون خوف.. ودون رعب.. ودون أن يلتفت أيضا أثناء الصلاة، فهو في بيت رجل أمن والتطرف أبعد ما يكون عن بيوت رجال الأمن.

لا وجود لكاميرات مراقبة في بيت لي.. لذلك يكفي موجان أن يغلق الباب بإحكام فقط ليصلي مطمئنا.

لم تقم عائلة موجان بأي مراسيم زواج لابنتهم رحمة.. ولم يُعدّو أي شيء من الطعام أو من الحلوى.. ولم يقدّموا دعوة لأي قريب لحضور هذا العرس، ولي أيضا لم يفعل أي شيء من ذلك فلا أسرة له سوى الدولة.

لم تشتري رحمة يومها فستانا جديدا للعرس يليق بالمناسبة..
رغم أن لي ترك لها نقودا تكفي لشراء كل الفساتين التي تحلم
بها جميع العرائس.. بل لم تكلف نفسها عناء ارتداء أجمل ما
لديها.

لم تصفف يومها شعرها ولم تلمس الطيب.. ولم يكن بإمكانها
أن تضع أي شيء من المساحيق ولا أن تهيا نفسها لرجل لا تريده
إلى حدٍ ترى قربه إثما.

الليلة هي ليلة العمر.. ولكن الواقع يقول شيئا آخر.. ففارس
أحلامها الذي انتظرت طويلا ليسرق روحها ويحلّق بها عاليا غاب
وحضر الرجل الخطأ الذي لم يستطع إلا أن يستأثر بجسدها
وحده.

كانت تشعر بأنها في سجن والمؤلم فيه أنه اختياري.

بيت الضابط لي كان واسعا وجميلا للغاية.. وهادئ لا يكاد يُسمع
فيه ولا خارجه أي صوت وكل شيء فيه مرتب.. ولكن ذلك لم
يغيّر شيئا من شعورها.

كل تلك الغرف النظيفة والأسرة المبتوثة لم تكن لتسعدھا.. وكل أغراض البيت المرتبة بعناية لم تبث في نفسها انشراحا.. ولا حتى ذلك المطبخ الفاخر كثير الزهور.

رحمة لم تتصور يوما أنها ستزوجه رجلا لا يؤمن بما تؤمن به، رجلا يرى الرب خرافة.

لأجل ذلك لم تكن مهتمة بأي شيء في ذلك البيت، كانت تفكر في صلاتها فقط، كيف ستصلیها؟ وماذا لو رآها لي؟ هل سيغفر لها ذلك؟

سرح ذهنها بعيدا وهي تتساءل هل بإمكانها أن تحلم برؤيته يصلي معها وهو الذي تفنن في سجن وتعذيب المصلين؟ أم أن ذلك لا يستحق أن يكون حلما؟ فهذا الرجل لا يعنينا.

أحضرها لي إلى البيت بعد عقد القران المدني و رافقها إلى الطابق العلوي ليخرج بعدها مسرعا.. قال أنه سيعود ليلا.

كيف ستهيا نفسها لقدومه وهي تشعر بالخوف منه وخوفها من الله أشد.. فكل هذا الزواج في نظرها معصية.. ولكن الخطئة اقتضت ذلك.

انتظرتة طويلا.. نامت على سرير وثير وأخذت تتلقف الأحلام الجميلة بحثا عن فارس ما يأخذها مما هي فيه إلى عالمه الجميل، ولكن ذلك الفارس أبى أن يزورها الليلة.. ولا حتى ذلك الرجل الذي كانت خائفة منه شاركها سريرها، ولم تستفق إلا على أشعة شمس الصباح.

استيقظت فزعتا.. خرجت من غرفتها مسرعة تجرّ ذيل فستانها لتجد زوجها نائما على أريكة في غرفة الضيافة.

ابتلعت ريقها على مهل وعادت بهدوء إلى غرفتها وأغلقت بابها بهدوء لا تريد أن توقد الوحش من سباته.. هكذا بدا لها.

تساءلت طويلا لما لم يأتي إلى غرفتها ليلا؟ ولما تزوجها أو أرغمها على الزواج منه إن لم يكن يريد بها بإلحاح؟ انتظرت طويلا في غرفتها متظاهرة بالنوم قبل أن تسمع الباب الخارجي يغلق.

حينها أطلت من خلف باب غرفتها الموارب وخرجت تمشي على رؤوس أصابع قدميها

تفقدت البيت جيدا فلم تعثر على زوجها، لقد أفطر وغادر البيت.. ترك لها كأسا من العصير وبعض الحلويات وورقة صغيرة كتب فيها سَاعود للغداء على الساعة الواحدة زوالا.

نزلت رحمة السلالم بهدوء لتتفقد أفراد عائلتها الذين سكنوا الطابق السفلي لبيت لي.. وكان هذا شرط رحمة الوحيد، وقبل أن تدق الباب فتحت أمها فهي لم تنم طوال الليل.. فقد ارتابت من ذلك الهدوء الذي ساد تلك الليلة.

سألها أمها وهي تحتضنها:

- ما الذي حدث معك؟

ابتسمت لها وهي تقول:

- كل شيء على ما يرام سأحدثك لاحقا والحمد لله أنكم بخير.

أسرعت بعدها بالصعود مجددا لبيتها بعد أن طمأنت أمها عليها ودون أن تُشبع فضولها.

لي قد يعود في أي لحظة وهي لا تريد أن يجدها خارج البيت والخطّة تقتضي أن تكسب ثقته ما أمكنها إلى ذلك سبيلا.

تناولت قليلا من ذلك العصير الذي تركه لي وأخذت تعد له شيئا مما تتقنه.. ليس حبا فيه ولكنها تريد أن تصل إلى شيء ما.

حضر لي ووجد طاولة مليئة بشتى أصناف الأطعمة، ابتسم ابتسامة عريضة ليس لأنه وجد كل تلك الأطباق.. بل لأن جيفنك كما يحلوا له مناداتها كانت جالسة تنتظره على طاولة الطعام على الساعة الواحدة زوالا تماما كما قال.

ألقى التحية وجلس على كرسي مقابل لها مستمتعا بالنظر إليها وهو يسألها عن أسماء ومكونات بعض الأطباق التي لم يكن قد رآها ولا تذوقها من قبل.

كانت أجوبتها مختصرة.. فهي لم تكن تشعر برغبة في الحديث إليه، وكان لي يخلق أسئلة أخرى يريد أن يسمع صوتها وأن يُطمئن قلبها لذلك قال:

- هل أعجبك البيت؟

لم تخفي جيفنك انهارها بترتيبه وهدوئه.. ليفاجئها حينها بأنه كره هذا البيت للسبب ذاته، فهو لم يكن يسمع فيه صوتا غير

صوته.. هو يريد أطفالا يعبثون بكل تلك الأغراض المرتبة، يريد أن يرى الفوضى تملأ أرجاء البيت.

فهمت من كلامه أنه يحب الأطفال ويحب البقاء في وسط أسرة.. وأنه تزوجها لأنه يريد أن لا يشعر بالوحدة التي عاشها طوال حياته.. ودون أن يقول أنه ابن الدولة ولا أسرة له.

لم تملك الجرأة لتسأله عن أسرته ولما يعيش وحيدا.. ولم تكن مهتمة أيضا لمعرفة ذلك فقد كانت تفكر في أشياء أخرى غير التي يفكر فيها لي لذلك قالت:

- لي هل يمكن أن أسأل شيئا؟

وضع لي كوب العصير الذي كان يحتسيه على الطاولة.. لينظر إليها نظرة تملأها عواطفه اتجاهها قبل أن يقول:

- نعم بإمكانك ذلك.

وحين علم أن طلبها هو إطلاق سراح ابن عمها تغير مزاجه تماما دون أن تفهم جيفتك سبب ذلك.. وحتى لي لم يفهم سبب غضبه أو أنه يعرف ولكنه لا يريد أن يعترف لنفسه بذلك.

هو يخشى أن يكون قلب جيفنك مِلْكٌ لذلك الرجل، نعم يغار عليها من رجل يعلم يقينا أنه قُتل في معسكرات إعادة التأهيل.. وأعضاءه تم بيعها للعرب الأغنياء كسلع حلال.

ولكن كان يجب عليه أن يترك غضبه وغيته جانبا فهو يريد أن يصل إلى قلبها قبل أن يمد يده إلى جسدها.. ولا بد أن يكسب ودها بأن يحقق لها طلبا ما دون أن يشعرها برغبتها تلك.

لذلك قال:

- جيفنك اطلبي شيئا آخر.

فكرت جيفنك مليا قبل أن ترد عليه، يجب عليها أن لا تضيع هذه الفرصة فهو الذي عرض عليها تقديم الخدمة، لتقول في النهاية أنها لا تريد شيئا لأن كل الطلبات التي جالت بخاطرها ستفصح رغبتها في الهروب من بيته.

مرت أيام على ذلك الحال.. ليعيد لي عليها العرض ذاته وألحّ عليها ليتقرب إليها ولم تجد حينها بدا من طلب أي شيء حتى وإن لم يكن مهما بالنسبة إليها.

خطر في ذهنها لحظتها أن تسأله شيئاً يُعجزه وإن استطاع تحقيقه فذلك سيفرح أم حبيب الله ويعوضها عن غياب ابنها.

حدثته عن صبي ضاع لعمها يوسف قبل ثلاثين سنة.. وتحاشت أن تقول أن هذا الصبي هو أخ حبيب الله الأكبر، اكتفت بذكر اسمه واسم والديه و المكان الذي ضاع فيه.. وأن عمره وقتها كان أربع سنوات.

تعجب لي من سؤالها عن شخص ضاع قبل أن تولد هي.. وفهم أنها تحاول أن تُعجزه.. لكنه أخذ قلمًا وسجل كل المعلومات التي قالتها عنه.

وقرّر الخروج من البيت لحظتها باتجاه مكتبه، اقترب منها قبل ذلك.. أراد أن يقبلها ولكنه منع نفسه فكبريائه يفرض عليه أن لا يتنازل.. وأن يترك الأيام تدفعها لتقرب منه وتختار وحدها الارتواء في أحضانه.. ولا يمكن أن يظهر حاجته إليها.

اكتفى بابتسامة مقتضبة وهو يخرج من البيت مرددا اسم
الصبي على لسانه، بدا له الاسم مألوفاً أو محفورا في الذاكرة
دون أن يعرف متى وأين سمع ذلك الاسم.. محمد رحمان.

المشهد العشرون

الجراح لا تلتئم بمرور السنين في حضور الذكريات.

عاد موجان إلى بيته تُسبق قَدَمَاهُ عَصَاهُ، ورغم أنه لم يغب عن ذلك البيت غير أيام معدودات إلا أنه يشعر أنه عاد من المنفى بعد زمن طويل.. لشدة شوقه لبيته الذي عاش فيه أجمل أيام حياته، وربما شدة شوقه لبيته ليست لطول الغياب بل لأنه عاد إليه اليوم للوداع الأخير.

جاء ليودع فيه أياما كان يحي فيها بكامل حرّيته.. ويتسابق فيها مع أقرانه إلى المساجد لأداء الصلوات.

أياما كان يقضي أغلب ساعاتها في رسم لوحاته الفنيّة.. وتربية ولديه على تعاليم الدين الحنيف.. والمبالغة في الاعتناء بهما وكأنهما إحدى تلك اللوحات التي يرسمها بعناية لتعلق عاليا وتكون موضع فخر.

كان موجان موضع إعجاب وتقدير من قبل سكان توربان كلها ويسارع الأويغوريون لشراء أجمل لوحاته لتزيين منازلهم.. والجميع كان يتحجب إليه للحصول على واحدة من تلك اللوحات.. التي كانت تباع داخل الوطن وخارجه، لتتغير الأحوال ويتجنبه الناس ويتخلصوا من لوحاته.

فتح موجان باب بيته المتهلhel ليدخل إلى بهو البيت ويتيه بصره لحظات في جدرانه وأرضيته وبقايا أغراضه فيه.. وغلبته العبرات.. وكأنه تذكر أشياء عادت به إلى الماضي وإلى ذكرياته الجميلة.. ليطارد ذهنه عبق تلك الذكريات العابرة علّه يلتقط بعضها لتستأنس روحه بشيء منها.

توجه موجان بعدها صوب قبوه ليشم رائحة الحبر على طاولته الصغيرة وقد استحالة تلك الرائحة عطرا ثمينا بالنسبة إليه.

عاد إلى بيته وإلى قبوه عودة الولد الضائع لحضن أمه ودموع القهر والحسرة تسيل على خديه.

عاد لبيتٍ ليست تسكنه غير الذكريات وحروفه العربية التي تنتظره بلهفة ليبت فيها الحياة.

لم يطل الوقت حتى دق أحدهم الباب ليفسد عليه خلوته تلك..
خلوته بذاته، بماضيه، بذكرياته، ببقايا لوحاته المحترقة وبقايا
حروفه المختبئة.

الباب يُدق مرة ثانية وثالثة لكن موجان لم يستعجل في الصعود
ولا في فتحه.. ليس لأن قدماء ما عادت قادرة على حمل جسده
بل لأنه لم يشعر بالخوف كعادته عند سماعه للقرع على باب
بيته.. لأنه ما عاد هناك شيء يخاف عليه.. وهو يرى أن شرفه
تلطخ أو على الأقل خسر أكثر شيء ثمين قد يخاف عليه أب.

ثم إنه لم يعد هناك أي شيء في بيته غير الذكريات التي لا يمكن
للأمن مطاردتها.

فتح الباب وإذا بها جارته أم حبيب الله وزوجة أخيه الفقيد
يوسف جاءت تتحسس أثر الزائر لذلك البيت الذي تركه أهله
دون كلمة وداع أخيرة.

سألته بلهفة عن حاله وحال أهله جميعا حين رأت أثر الدمع
على خده.

أجابها موجان وقد لاحظ فزعها من منظر دموعه.. فلم يسبق لها وأن رأت مقلتيه تذرفان دمعاً:

-الحمد لله.. كل شيء على ما يرام.

ولكن دموعه كان لها شأن آخر وهي تواصل إفلاتها من قبضة أجفانه لتحكي لها كل الذي يؤلمه.. ذكرياته الجميلة التي تحاول أن تطفوا فوق حاضره المأساوي.. لتحكي أياما كان يحيا فيها بسلام ويعبد ويرسم.. ويرقص أيضا حين يرغب هو في ذلك لا حين يريد الحزب.

بكى موجان على كل الذين رحلوا، بكى على أخيه يوسف وعلى حبيب الله وهو يراه ولده الثاني، بكى على كل الأحباب الذين سيرحلون ظلما إلى الدار الأخرى أو إلى المعسكرات التي ستوصلهم حتما لتلك الدار.

لم يكمل موجان حديثه ولم ييث كامل أوجاعه وأشجانه لزوجته أخيه ليجد دمعها قد انهمر.. وهي المرأة المُتصِّرة التي لا تزال صامدة لأجل بناتها اللاتي تريد إيصالهن لبر الأمان.. ولا تريد أن تظهر لهن ضعفها لكي لا تشعرهن بالخوف مع حاجتها الشديدة للبكاء.

بكت بحرقة وهي الأم الثكلى التي تنعي ولدها حبيب الله وقبله محمد رحمان.. والأرملة أيضا التي لا تدري مصير زوجها.

توقف موجان عن البكاء لمواساة امرأة فقدت فلذتي كبدها، بل توقف لأنه ما عاد قادرا على البكاء.. فقد بكت أم حبيب الله بكاء شديدا نيابة عنه وعن كل الأويغور.

توقف موجان عن البكاء مع حاجته إليه وهو يعلم أن هذا آخر يوم سيرى فيه بيته وجاء ليودع ذكرياته فيه.

لم يستطع موجان أن يخبر أم حبيب الله بما يفكر فيه.. ولا استطاع أن يعتذر إليها عن تركه لها ولبناتها وعن رغبته في النجاة بنفسه، فتقديم المساعدة مستحيل.

وكيف يخبرها بذلك وهي تقص عليه اللحظات التي أخذ فيها ولدها الصغير منها عنوة.. وكأنها تقص عليه شيئا وقع لها اليوم.. وثلاثين سنة لم تخفف من حرقه قلبها الموجوع على ولدها شيئا. أخذه الأمن منها عنوة في أحداث عنف وقعت قديما في كاشغر، واضطرت لذلك هي وزوجها وموجان وأهله للهجرة إلى توربان

بحثا عن الطفل الصغير.. والذي قيل أنه نُقل إلى إحدى دور الأيتام فيها.

ليختفي يوسف أيضا بعد سنوات من البحث عن ولده.. وبعد أن أكثر من إزعاج رجال الأمن بأسئلته عن ولده الضائع.

وأم تامر هي الأخرى لا تزال تواصل أسئلتها واستفساراتها.. تريد أن تسترجع ولدها الضائع أمامها.

أخبرها الطبيب بعد فحصه المعمق لتامر أن ولدها تعرض لصدمة نفسية قوية.. وجسده يعاني من نقص حاد في الثيامين.. ومشبع ببعض المواد الكيماوية المشعة والمترسبة في الشق السفلي لدماغه والتي لا يمكن تحديد مصدرها.

ولم يستطيع الطبيب أن يجزم إن كان لتلك المواد علاقة بالفراغ الذي يحسه تامر في ذاكرته.

أخبرها أن الطب يعجز عن الفهم الكلي لحالات فقدان الذاكرة.. إلا أن الشيء الذي يمكن فعله لمساعدته على استرجاع ذاكرته هو تركه يرتاح.. وتوفير جوهادهى له بعيدا عن الضغط.

لذلك كانت الأم ترسل ولدها مع صديقه حمزة للصيد وللترفيه
كما كان يفعل ذلك قبل سفره إلى شينجيانغ.

عرض عليه صديقه حمزة بعض السهرات في الرياض لمطربين
عالميين إلا أنه رفض ذلك وإن كان الزمن زمن ترفيه.

لم يعد تامر يحب السهر بل أصبح محبا للصلاة وحبه للاعتكاف
في الحرم أشد.

وأصبح ذلك مزعجا بالنسبة للأم التي لم تتوانى من قبل في
نصح ولدها بأداء الصلاة في وقتها.. واليوم يزعجها أن تراه لا
يترك الحرم إلا نادرا.

وتتوالى الأيام دون نتيجة تذكر والأم تشعر أن الهوة بينها وبين
ولدها تكبر وأنها تفقده مع مرور الوقت أكثر.. ولم تجد حينها إلا
أن تعود لاستجوابه والضغط عليه وتذكيره بذلك الإقليم.

أخذته إلى غرفة أخيه المريض الذي لم يسأل عنه تامر ولم يتردد
على غرفته منذ قدومه غير مرة أو مرتين ليلقي التحية فقط،
جلس على حافة سرير أخيه الذي بدأ يستعيد عافيته شيئا

فشيئا، ووضعت الأم بين يديه ملف أخيه الطبي وأخذت تقص عليه الحكاية من البداية.

وأنه ذهب لذلك الإقليم بطلب منها لغرض تهيئة الظروف لإجراء عملية زرع كلية لأخيه.. قبل أن يختفي هناك وتضطر هي للسفر للبحث عنه وللوقوف على إجراء تلك العملية بنفسها.

ولكن تامر لم يستطع أن يتذكر شيئا مما قالته له وهو يستمع إليها ويقلب الأوراق الطبية لذلك الملف ليقع بصره على اسم الطبيب موتشو.. المسؤول عن زراعة الأعضاء في الإقليم.

يحدد تامر في ذلك الاسم مليا كأنه تذكر شيئا ما.. يمسك رأسه بكتا يديه ليتحمل الصداع ويواصل محاولاته لتذكر صاحب الاسم.. ليشعر حينها بصعق كهربائي في رأسه وارتفعت صرخاته حينها ليقع أرضا مغشيا عليه.

المشهد الواحد والعشرون

قد تجد نفسك بالبحث عن الآخر.

بحث لي في السيسستم عن شخص يحمل ذلك الاسم وتلك المواصفات التي ذكرتها زوجته ولكن دون جدوى، فالسيسستم لا يتضمن بيانات عن أشخاص اختفوا قبل ثلاثين سنة، هو يعرف ذلك جيدا ولكنه فضل البدء بالحل السهل.

طلب من جنوده أن يبحثوا في كل سجلات دور الأيتام في تلك المنطقة.. وبالتحديد دور الأيتام التي فتحت أبوابها قبل ثلاثين سنة.. وأعطى لجنوده كل المعلومات التي بحوزته عن ذلك الصبي الذي يبحث عنه، إن كان حيًا فعمره الآن أربعة وثلاثون سنة.

عاد جنوده الواحد تلو الآخر يجرون ذيول الخيمة فلا أثر للشخص الذي بحثوا عنه، فدور الأيتام في المنطقة لم تتكفل بأي طفل يحمل ذلك الاسم وتلك المواصفات.

جلس لي بعد ساعات طويلة من البحث يفكر في حل لهذه المشكلة.. فهو لا يريد أن يقول لجيفنك أن طلبها أعجزه فتحقيق طلبها من البداية كان يبدووا شبه مستحيل، لكنه هو الذي قبل التحدي.

فكّر طويلا ولكن دون جدوى.. لا يمكن تحقيق هذا الطلب، خطر بباله أن يقول لها أنه مات ولكن خشي أن تكون حيلة منها لتظهر له ضعفه.

بإمكانه أن يطلب منها مهلة للبحث ومزيذا من المعلومات عن ذلك الشخص.. ولكن قبل ذلك هو لا يريد أن يعود إلى بيته خاويّ اليدين.. وليكسب ودها لا بد من إظهار الاهتمام الذي يُعبر عن الحب دون أن يضطر لقول ذلك.

قرّر لي أن ينام ليلته تلك في مكتبه لأجل شيء ما في نفسه.. وليزور صباح اليوم التالي أكبر ملجأ للأيتام في المنطقة والذي تديره الدولة بنفسها.

أحد جنوده قال أن مدير تلك المؤسسة رفض تقديم أي سجلات عن الوافدين إليها من الأطفال وتحجج بالسرية التي تكتنف عمل المؤسسة.. وأن ذلك لحماية الأيتام ليس إلا.

المدير اكتفى بالبحث بنفسه في تلك السجلات.. ليقول في الأخير أنه لم يمرّ بالمؤسسة أي طفل يحمل ذلك الاسم وتلك السمات.

في صباح اليوم الموالي استقبل مدير المؤسسة لي استقبالا حارا باعتباره ضابطا مرموقا في المنطقة، وعرفه بالمؤسسة وبطبيعة نشاطها.. وشرح له كل شيء متعلقا بها.. وكان مستعدا لتقديم أي مساعدة.. وحتى تمكينه من الاطلاع على الأرشيف بنفسه.

شعرتي بانقباض في الصدر وبشيء من الحزن فقد فهم من كلام المدير أن هذه المؤسسة الضخمة ليست لإيواء الأيتام.. بل لإيواء أبناء المتمردين والذين تفصل الدولة أولادهم عنهم قصرا.

لأن الدولة وحدها قادرة على تنشئتهم تنشئة سوية بعيدا عن التطرف.

لم يُفكر لي من قبل ولو مرة واحدة في أبناء كل الذين اعتقلهم،
لم يكن يتصور يوما أنه تسبب وشارك في مأساة كبيرة، هو
مدين لكل أولئك الأطفال الذين فُجِعوا في أمهاتهم وآبائهم.

كان ناقما طوال حياته على كل من تسبب في يُتمه.. وناقما على
والديه أيضا والذين تركاه صغيرا لينشأ وحيدا في دور الأيتام،
والآن يشعر بأن كل أولئك الأطفال ناقمون عليه لأنه سبب
بعدهم عن ذويهم.

حدّث نفسه قائلا:

- ما ذا لو كان والداي قد أرغما على تركي كما أرغمت الكثير من
الآباء الأويغور على ترك أطفالهم.

لم يكن يتصور أن حربه على التطرف مُتَطَرِّفة هي أيضا إلى حد
فصل الأطفال عن ذويهم بدعوا الأمن القومي، أي أمن سيكون
بلد فصل أُمًّا عن أبنائها؟

لاحظ المدير شرود ذهن الضابط فتوقف عن شروحاته تلك
وعرض عليه أن يرافقه إلى مكتب الأرشييف في المؤسسة كما
طلب.

خرجا من المكتب سويا والسكون يعمّ المكان باستثناء أنينٍ ما..
كان المدير يفسح الطريق للضابط ليسيرا يمينا إلا أن لي كان
يسير في الاتجاه المعاكس.

نمّه المدير مرارا إلا أنه ظل يسير في ذلك الاتجاه، تسوقه قدماه
دون وعي منه إلا أن وصل إلى أول حجرة يرقد فيها مجموعة من
أبناء قومية الأويغور.

فتح بابها وتفحص المكان ليجد نفسه ينحني لصبي سلب عقله
فجأة.. فقد وجدته جالسا في زاوية من تلك الحجرة قد ضم
قدميه إلى صدره وغطّى وجهه، وربما صوت أنينه هو الذي ساق
قدمي لي إليه.

مد لي يده ليمسح على شعر الصبي الذي كان ينتحب وجلس
على الأرض ليتودد إليه.. وسأله عن اسمه.. ليلتفت الصبي حينها
يمينا وشمالا وبعدها قال بصوت خافت:

- أنا اسمي سطوق.. وينادونني إي وان.

وأجهش بالبكاء.

تغيّر وجه المدير من كلام ذلك الصبي وألح على الضابط بأن يغادرا هذه الحجرة إلى مكتب الأرشيف، لحظتها كان لي قد مد كلتا يديه ليغطي أذنيه ودون شعور منه.. فذلك البكاء سبب له صداعا رهيبا بشكل غريب.

- هل أنت بخير سيدي؟

- نعم أنا بخير وإن كنت أشعر بصداع شديد.

ذهبا سويا إلى مكتب الأرشيف.. هناك قدم المدير قليلا من الماء للضابط وعرض عليه سجلات المؤسسة إلا أن لي لم يعد مهتما لأمر تلك السجلات.

بل سألته عن ذلك الصبي وطلب شرحا عن سبب حمله لاسمين، ليبيّن المدير للضابط بعد قليل من التردد وبعد إغلاق باب المكتب بإحكام.

أنه يتم استبدال الأسماء الأويغورية للأطفال بأسماء صينية، وأن المعلومات في هذه المؤسسة مشفرة ويحتفظ مكتب خاص في جهاز الأمن بالرموز التي توازي كل اسم من أسماء أطفال الأويغور.

ولا يمكن الاطلاع على تلك الرموز السريّة التي تبين نسب كل طفل، خصوصا منهم الذين غادرو المؤسسة بعد إكمالهم ثمانية عشر سنة.. وتم إدخالهم في أي نشاط اقتصاد أو أمني لخدمة الوطن.

فهم حينها لي سبب عدم إيجاد أي معلومات عن الصبي محمد رحمان فلا بد أنه يحمل اسما آخر غير هذا الاسم.

طلب لي من المدير أن يأذن له بأن يتكفل بذلك الصبي الذي شاهده قبل قليل لكن المدير اعترض بشدة.

ألحّ عليه لي ربما لشعوره بأنه يعرف هذا الصبي وشيء ما في داخله يقول أنه جزء منه، وربما لأنه شعر بمسؤوليته اتجاهه فقد يكون هو الذي اعتقل والديه، وقد يكون السبب شيئا آخر.. فأنين وبكاء ذلك الطفل الصغير راسخ في الذهن يحكي شيئا ما دون أن يُفصح.

لكن رغم إصراري فقد كان المدير واضحا للغاية فمؤسسته لا تسمح لغيرها بتبني أي طفل يدخل أسوارها.. وأنها تتكفل بتنشئتهم إلى أن يكبروا ليكونوا ذخرا للوطن وخداما له.

غادر لي المؤسسة وهو مصمم على أن يعود مجددا ليأخذ الطفل
سطوق أو إي وان للتكفل به كما كان مصمما على إيجاد محمد
رحمان.

المشهد الثاني والعشرون

الثقافة الأويغورية مستهدفة أكثر من أجساد
الأويغوريين.

دخل لي بيته متعبا وهو لا يزال يفكر في ذلك الصبي الذي
شاهده صباحا، بكائه لا يزال عالقا في ذهنه والصداع لم يخفَّ
بعد.

لم يعد إلى العمل بل جاء لبيته ليقول لجيفنك أنه سيعثر على
ذلك الشخص الذي طلبت منه البحث عنه.. وأنه يحتاج فقط
بعض الوقت.. كان يفكر قبل وصوله في أن يسألها عن أي
معلومات أخرى عنه ليسهل البحث عنه.

دخل إلى البيت ولم يجدها ولكنه لم يهتم لذلك كثيرا فهو يعرف
أنها نزلت إلى الطابق السفلي عند أهلها.. ولم يرد أن يطلبها فقد
كان متعبا للغاية وفضل أن يرتاح.

والهاتف كان له شأن آخر فقد أخذ يرن ويرن دون توقف.. ولم يكن بوسع الضابط لي إلا أن يُطفأه فلم تكن له القدرة ليكلم أي أحد.

بدأت الرسائل تصل إلى الهاتف الواحدة تلوى الأخرى.. تقول الرسالة الأولى بأن زوجتك غادرت الحي.. وتقول الثانية لقد ابتعدت عن البيت بعشرة كلومترات، وفي الثالثة غادرت مدينة توربان، وفي الأخيرة هي على الحدود مع دولة منغوليا.

هربت جيفنك هي وكل أفراد عائلتها الصغيرة.

كانت خطة محمود تقتضي أن تتزوج أخته من الضابط لي لتسهيل هروبهم، وهذا هو سبب قبول موجان ورحمة لهذا الزواج الخطأ.

وقبل ذلك لا بد أن تعيش رحمة مع الضابط لبضعة أشهر حتى تتأكد من أنه وثق بها إلا أنها هربت بعد أيام قليلة من زواجهما.

لقد فاجأها والدها وأخوها حين أخبراها وبمجرد خروج زوجها بأنه يجب عليهم الهروب فوراً.. وبقدر ما كان الخبر مفاجئاً بالنسبة إليها فقد كانت سعيدة لذلك.

هي لم تخسر أي شيء بعد وزواجها كان صوريًا وأفضل مما توقعت.. وبإمكانها وبهروبها أن تحافظ على جسدها طاهرا وأحلامها بكرا.

وثائق السفر كانت جاهزة.. وخطة أخيها معدة سلفا، حتى النقود كانت متوفرة فقد ترك لي ما يكفي.. والطريق معروف فوالدها سافر من قبل مرارا إلى منغوليا لبيع ألواح.. قبل أن تغيّر الصين طريقة معاملتها للأويغور وفق حملة اضرب بقوة.

ورحمة زوجة ضابط وإمكانها أن تتحرك بحرية ما ودون أن تثير الشبهات ولا يمكن لأحد إيقافها إلا للاستفسار فقط.

لا يمكن أن يتحرك أي فرد من الأويغور في شينجيانغ من حي إلى حي آخر دون المرور على أبواب الكترونية تسجل تحركاته، وفي أي لحظة قد يعتقل لتحركه ذاك، ويجب عليه حينها أن يُعد جوابا واضحها عن سبب انتقاله من حي لآخر وإلا فسيُسجن.

لكن رحمة استطاعت أن تستغل وضعها كزوجة لضابط بشكل جيد ووصلت شمالا إلى حدود دولة منغوليا دون مشاكل، ومنغوليا أقرب الدول إلى توربان.

يواصل جهاز الأمن تنبيه الضباط لي وإرسال الرسائل الواحدة تلو الأخرى ليعلمه بتحركات زوجته، فالسيستم كان يعمل باستمرار وملايين كاميرات المراقبة كانت تصدر إشارات تنبيه باعتبار رحمة وأفراد عائلتها من الأويغور.

و وضعها كزوجة لضابطٍ مرموق كان يُعرقل مهمة رجال الشرطة.. لم يكن بوسعهم اعتقالها وتوجيه أي تهمة لها أو لأي فرد من عائلتها.

لم يصدق لي حين فتح هاتفه ورأى كل تلك الرسائل، لم يكن يتصور أن جيفنك يمكن أن تفعل ذلك وهو الذي لم يعامل أحدا كما عاملها.

لقد كان يكلف نفسه أشياء تتناقض مع ذاته ليكسب ودها، لقد كان يحاول أن يكون شخصا آخر معها غير الضابط الذي لا يرحم.. ولا يتسامح مع أحد.

- من الضباط لي إلى شرطة الحدود حوّل.

- نعم أنا أسمعك سيدي.

- أوقفوا زوجتي وكل أفراد عائلتها فوراً إن لم يغادروا التراب الوطني بعد.

يسكت الشرطي لبعض الوقت ليتفحص الشاشة وليبحث عنهم في السيستم.. قبل أن يحين إشارات التنبيه التي تعتبر أوامراً إلى أي رجل أمن قريب من الموقع ليتدخل.

كسبات أضرار واثوان معدودات ليرد الشرطي.

- المهمة تمت سيدي، كيف تريد أن تكون معاملتنا لهم؟

لم يرد لي على الشرطي فهو لا يدري بعد كيف سيتعامل مع امرأة يحبها؟ كيف سيعامل عدواً داخلياً، إن ضربها تألم.. وإن سجنها كُسر قلبه.. وإن قتلها مات معها، وشعور الخيانة كان يقتله ويمنعه من تركها سالمة.

أحسن أن جيفنك استغلت حبه وأنه كان ساذجاً في معاملتها إلى حد بعيد.. ومتساهلاً جداً فقد أذن لأهلها بالسكن في بيته.

كان يحاول الوصول إلى قلبها بشتى الطرق ولم يُرد أن يسجن أهلها، كان يجب عليه أن يفعل ذلك منذ اليوم الأول الذي دخل بيتهم.. وأن يأخذها بالقوة إلى بيته سبيّة مهانة لا زوجة مكرمة.

لكنها لم تعرف معنى الجميل حتى ترده.. وربما لم تعرف معنى الشدة حتى تتمنى أن يعود الجميل مرة أخرى.

وصلت جيفنك إلى البيت مكبلة اليدين.. وقعت أرضا عند قدمي لي، ترجمته أن يسامحها ووعدته أنها لن تعود لفعلها ذاك مرة أخرى.. وللمرة الأولى لم يكن قلبه ينبض بشدة كما كان عليه عند كل مرة تكون فيها أمامه، ربما كان يُعلم قلبه الحدود بين الحب والكبرياء.

لكنه عاد ليضعف حين رأى الدم في يدها ورفعها حينها إليه ليمسكها بكلتا يديها.. فقد ظن أن رجال الشرطة أساءوا معاملتها، واستسلمت له جيفنك كما لم تستسلم من قبل لرجل.. ظنا منها أنه سامحها بكل سهولة ولكنه تركها حين تأكد أن الدم في يدها.. دم والدها.

أدخلها إلى البيت بقوة وتركها تبكي.. وخرج دون أن يلتفت إلى الخلف.. ودون أن يعير دموعها أي اهتمام.. وكانت تترجأه أن يطلق سراح أفراد عائلتها الذين وُجِّهوا إلى معسكرات إعادة التثقيف.

كان أكثر شيء ألمها هو صراخ أفراد عائلتها وهم يُضربون ويجرّون أمام عينيها دون أن تستطيع تقديم المساعدة، كانت تتمنى أن تُضرب هي أيضا حتى يغى عليها لكي لا ترى والدها يُجرّ وهو يسبح في دمه.

وكان أكثر شيء ألم لي بعد شعور الخيانة هو شعوره بالضعف أمامها فقد أمر بأن يُسجن الجميع إلا جيفنك.

المشهد الثالث والعشرون

مشكلة مسلمي الأويغور في إيمانهم بوجود وطنٍ
بديل اسمه تركستان الشرقية.

كانت أم حبيب الله تنشر غسيلها في فناء بيتها حزينه الفؤاد..
تجول خواطرها بعيدا وهي تفكر في حالها وحال بناتها بعد
اختفاء زوجها واعتقال ابنها حبيب الله.

توقف مصدر رزق العائلة فالتجارة التي كان يديرها زوجها ومن
بعده ولدها توقفت، والمدخرات تكاد تنفذ.. وهي تمنع بناتها
الثلاث من الخروج للبحث عن العمل أو لأي سبب آخر.

منذ أكملن ثمانية عشر سنة وهي تمنعهن من مغادرة البيت فهي
تخشى عليهن مصيرا مشابها لمصير رحمة.

كانت بناتها مستعدات لتحمل الفقر والحاجة ولكنهن لم يكنَّ
مستعدات للارتباط بأي رجل من الهان.. لذلك رضين بالسجن
الذي فرضته عليهن أمهن بطيب خاطر.

لم تجد الأم بعدُ أزواجاً لبناتها فأغلب رجال الأويغور في سجون المحتل والفقريمنع من تَبقى منهم من الزواج.

فكّرت في الهجرة إلى أي إقليم آخر في الصين غير إقليم شينجيانغ الذي تسكنه.. فهي تعلم يقينا أن السلطات متساهلة في التعامل مع المسلمين في جميع أنحاء البلد باستثناء شينجيانغ.

متساهلة مع جميع طوائف المسلمين الذين لا يرون وطناً آخر لهم غير الصين، والأويغوريون يرون الصين محتلاً لوطنهم تركستان الشرقية أو كما تسميها الصين شينجيانغ.

في بيكين يمكن للمسلمات العمل بحرية.. ويمكن لهن الارتباط بمن يُردن أو بمن يرينه مناسباً لهن.. شريطة أن لا يكن أويغوريات.

لذلك لم تغادر أم حبيب الله ذلك الإقليم ولو حاولت فالأمر أشبه بالمستحيل، فالتنقل من حي لآخر بالنسبة للأويغور ليس بالأمر الهين، والجميع تحت المراقبة.

وهي لا تزال تمنى نفسها بإطلاق سراح ابنها حبيب الله وإن كان الضابط الذي اعتقاله أكدّ لها أنه لن يغادر السجن إطلاقاً.

ذلك الضابط الذي لا تزال لم تفهم بعد لما هي ليست حاقدة عليه وقد حرّمها من فلذة كبدها وأهانها أكثر من مرة.. بل لم يسبق لها أن دعت عليه في صلواتها.

مدت الأم يدها لتضع آخر لباس على الحبل لتجد رجلاً طويلاً يقف أمامها، ارتعبت لمنظره ولوقوفه المفاجئ ذاك ثم تماسكت قليلاً لتتنظر في ملامح وجهه.. فملاحه ليست غريبة.

قبل أن تحدد فيه بقوة قائلة:

- أ.. أنت الذي سجن ولدى حبيب الله.

لم يَرِدَ الرجل على سؤالها فانتابها الشكوك، ربما هي مخطئة.. لكن قلب الأم لا يمكن أن يخطأ من زرع فيه الألم..

زارت مركز الشرطة الذي يرأسه ذلك الضابط مراراً منذ اعتقال حبيب الله لتطلب منه أن يطلق سراحه.. لكنه لم يكن يستقبلها

حتى يسمع شكواها يكتفي فقط بأن يأمر جنوده بطردها..
وبشكل مذل يختلف كل مرة عن الأخرى.

وحين أصرت وأكثر من زياراتها تلك استقبلها مرة واحدة فقط
لينصحبها.. بأن تنسى ولدها وأن تنجب ابنا آخر فذلك أسهل لها.

- لما جاء اليوم إذا؟

تتساءل أم حبيب الله، هل ليقول لها متى تنجبين ولدا آخر
لأعتقله؟ أم ليعقلها هي أيضا؟

فكرت في أن تضربه بأي شيء متاح لها لتشفي شيئا من غليلها
لكنها تذكرت بناتها وخشيت عليهن من ردة فعله فهدأت حينها
من روعها.

جلس دون أن يستأذن وسألها شيئا لم يكن يخطر على بالها.

لما الآن بعد كل تلك السنين؟ ولماذا هذا السؤال؟ لما يسألها عن
صفات ابنها البكر الذي ضاع صبيا قبل ثلاثين سنة؟ لما يفتح
هذا الجرح الذي لم يلتئم بعد؟ هل ليواصل تعذيبها؟ ألم يكتفي

باعتقال ابنها حبيب الله؟ لما يسأل عن محمد رحمان؟ حتى هي لم تعد تسأل عنه لتريح نفسها.

وبدل أن تجيبه بكت بحرقه على أبنائها وأشفق الضابط لي لحالها، تمنى لو كان بإمكانه أن يطلق سراح ابنها لكنه يعلم يقينا أنه قتل وأن أعضائه بيعت.. وانتهى الأمر.

تساءل لي وأم حبيب الله تبكي، لما قادته قدماء اليوم إليها؟ هل ليلى طلب جيفتك ويجد ذلك الشخص المفقود دون أن يسألها عن صفاته؟ فهو لم يعد يرغب في الحديث إليها منذ تم إرجاعها بالقوة من على حدود دولة منغوليا.

هل حقا لا يزال يريد أن يلبى طلبها ذلك وهو السبب الوحيد لزيارة هذه المرأة؟ أم الأمر أصبح بالنسبة إليه قضية شخصية.. وفضول ما يدفعه للبحث في هذا الأمر ويريد أن يُشبعه.

أم أنه جاء ليرى هذه المرأة التي يرى فيها شيئا من زوجته؟ شيئا لم يكن قد شعر به اتجاه أم جيفتك ذاتها؟ شيئا غريبا شعر به حين زارته في مكتبه.

رغم أنه ردها بقوة وطردها إلا أنه أراد يومها أن يقدم لها المساعدة.. ولكنه لم يرد في الوقت نفسه أن يضعف أمام جنوده وكبريائه منعه وغلبه.

رغم كل ذلك تمنى يومها أن تبقى تلك العجوز مزيدا من الوقت معه، وربما جاء ليحقق تلك الأمنية الغريبة.

هل جاء حقا ليرى هذه العجوز وهذه المرأة التي تشترك مع جيفنك في شيء ما، شيئا يجعله يضعف أمامها كضعفه أمام حبيبته.

ودون قصد منه وعدها إن هي أخبرته عن صفات ولدها الضائع أن يبحث لها عنه وأن يحضره إليها إن كان حيا.

ابتسمت الأم وتسربت البشائر إلى قلبها وأينعت أرض قلبها البور لفراق أبنائها فقالت وهي تجفف دمعها وتبتلع ريقها:

- إن أكثر ما يميز ولدي ذلك أنه كان أسمر البشرة.. وفي ظهره وحم كبير على شكل كتاب.. وله عيب خلقي في رجله اليسرى فثلاثة أصابع منها ملتصقة.

لم تكمل الأم حديثها وإذا به يغادر دون استئذان كما جاء دون استاذان أيضا.

تساءلت في سرّها:

- هل غادر حقا؟ أم أنه لم يغادر بل هرب؟

فقد خرج مسرعا وأمارات الدهشة والخوف بادية على وجهه،
خرج من بيتها كمن رأى عفريتا وخشي أن يفتك به.

اشتدت حيرة الأم وأطلت برأسها للشارع تتقضى خطواته.. غير أنها
لم تعثر له على أي أثر باستثناء غبار أثارتُه عجلات مركبة وهي
تبتعد مسرعة.

وعادت بلهفة إلى بيتها لتقص على بناتها كل الذي حدث لها وهي
غير مصدقة.. دون أن تنسى إغلاق الباب بإحكام.

المشهد الرابع والعشرون

من كان يضرب بقوة اكتشف أنه ضحية.

مرّت أيام عديدة لم ترى رحمة والديها وأخوها محمود، كانت كل يوم تترجى زوجها بأن يغفر لها خطأها وأن يطلق سراحهم ولكن دون جدوى، وعدته مرارا بأن تُخلص له إن هو أفرج عنهم ولكنه لم يكن يرد.

لم يمنعها ذلك من الإلحاح عليه، فكل تلك المدة التي قضتها في بيته جعلتها ترى أن في قلبه القاسي شيئا من الرحمة.. وشيء ما كان يقول لها أن في أعماق زوجها بذرة متأصلة من الطيبة.

رغم أنه منعها من الصلاة، فمنذ عودتها من حدود دولة منغوليا لم تسجد سوى سجدة واحدة.. بعد تلك السجدة بدقائق دخل لي إلى البيت والذي تلقى إشارات تحذير من كاميرات المراقبة التي ركبها في بيته.

دخل غاضبا بوجه لم تكن قد رآته من قبل.. وقبل أن يقول لها أي شيء لطمها لكمة اسقطتها أرضا وأدمت شفقتها، حذرها بنبرة صوة حادة إن هورآها تصلي مرة أخرى فسيلحقها بأهلها.

بعدها أصبحت رحمة تصلي جالسة وتتكفل عينها بأداء فريضتي الركوع والسجود.. فحركات العيون عوضا عن حركات الجسد في الصلاة قد تكون كافية في شينجيانغ.

لم يرغمها في الأيام الأولى لزواجهما على شرب الخمر وهي لم تره يحتسي تلك المشروبات ولو مرة واحدة.. وإن أدخل للبيت كل أصناف النبيذ.

ولكنه بعد محاولتها الهرب أجبرها على الاحتساء من تلك المشروبات كل يوم.. ليُفرغ ذهنها من كل أفكار وأشكال التطرف.

ومع ذلك هي لا تزال تسأله كل يوم أن يطلق سراح أهلها وهم الأكثر تطرفا، والأيام تمضي واليأس بدأ يعرف طريقه إلى قلب رحمة التي قد لا ترى أهلها إطلاقا، فلا أحد خرج من معسكرات إعادة التثقيف.

معاملة لي السيئة لها لم تكن لتُخفي عنها شيئاً من طبيته والتي كانت تُحسبها في حركاته قبل كلماته.

أجبرها على ترك الصلاة وشرب الخمر وتناول لحم الخنزير ليس لمهينها فهو يحبها.. ولكن ليجعلها في اعتقاده أكثر انفتاحاً، ذلك هو الشعور الذي كان يراودها اتجاهه، ويشفع له عندها أنه لم يرغمها يوماً على النوم في غرفته.

ومشاعره اتجاه الصبي الذي أحضره من دور الأيتام للتكفل به لم يكن بمقدوره إخفاءها عن جيفتك وإن حاول ذلك.

هو لم يكن يستطيع تركه بين ذراعيها دون أن يضمه.. ولا أن يتركه يلعب إلا بعد أن يشمه، لم تكن لها فرصة للاعتناء بالصبي سطور طوال تواجد لي بالبيت.

وعندما يخرج من البيت كان يطلب منها بإلحاح أن تعتني به، حتى لو لم يكن يطلب منها أن تعتني به لم يكن بوسعها إلا أن تفعل ذلك.. والصبي أصبح متنفس رحمة الوحيد في سجنها ذاك.

لم يعد بإمكان رحمة الخروج من البيت فالاعتناء بالصبي سطوق أخذ جل وقتها.. وبيتها أصبح مرصعا بالكثير من الكاميرات الذكية.. وعند باب بيتها يتناوب رجال الشرطة للحراسة ليلا ونهارا.

شيء واحد لم تكن تفهمه رحمة هو شعور لي بالصداع عندما يسمع صوت بكاء الصبي، كان يبتعد مباشرة.. يغطي أذنيه ويغلق عليه باب أي غرفة، أو يغادر البيت إلى حين تأكده أن الصبي سكت.

حتى لي لم يكن يفهم سبب ذلك الصداع وطوال الفترة السابقة.. والطبيب الذي راجعه مرارا لم يتوصل إلى نتيجة تذكر.

تردد على دار الأيتام الخاصة بأطفال الأويغور مرارا فذلك الصداع بدأه في اليوم الذي زار فيه تلك المؤسسة.

- سطوق إياك أن تبكي سيعود بابا قريبا.

كانت تلك كلمات رحمة التي تكررهما دوما على مسامع الصبي كلما قرب وقت حضور لي، فهي لا تريد أن يتسبب بكائه في منع

لي من الدخول إلى البيت، ليس حبا ولكنها أصبحت تستأنس به
ويسرّها حضوره لأنه لا يدخل إليها في عزلتها تلك إلا هو.

أعدت رحمة شيئا من الطعام الذي يحبه زوجها.. ورتبت غرفته
لتعود إلى غرفتها وتستلقي على السرير في انتظار قدومه.. فقد
تأخر هذه المرة قليلا.

عادت مجددا لتأخذ الصبي بين ذراعيها لتلاعبه وهي تطل من
الشباك وعيونها تسرح في الشارع المجاور تتقفى أثر زوجها..
لحظتها فُتح الباب ودخل لي، ابتسمت له ولكنه لم يبادلها
الابتسام، دفعت بالصبي إليه ولكنه لم يستلمه ولم ينظر إليه
على غير عادته.

نظرت رحمة إلى وجهه نظرة فاحصة فبدى لها أنه مشتت
الذهن.. منهك الفكر وأمارات الخوف بادية على وجهه، لم تكن
رحمة قد رأتة على تلك الحال منذ عرفتة.

دخل إلى الحمام وتركها واقفة في ذهول.. وصبّ كثيرا من الماء
البارد على جسده ليستفيق من سكرته وليتأكد أنه ليس في حلم

فالذي علمه بعد زيارته لأُم حبيب الله لم يكن بإمكانه تصديقه..
ولا عقله كان قادرا على تحمله.

خرج من الحمام ليجد رحمة واقفة عند بابه تنتظره.. سألته
بلهفة:

- ما بك؟ هل وقع لك شيء؟ هل قال لك الطبيب شيئا ما؟

لكنه بقي ساكتا حاضرا الجسد وغائب الذهن، جلس إلى طاولة
الطعام لكنه لم يمد يده لتناول أي شيء حينها سألته مجددا:

- ألم يعجبك ما أعددت لك اليوم؟ وهل أحضر لك غيره؟

لكنه لم يجيبها أيضا بل مد يده لقارورة الخمر وأنزلها من على
الطاولة قائلاً:

- من هو الله؟

ارتعبت رحمة من سؤاله ذلك وشعرت برعشة ما في يديها
فأنزلت الصبي أرضا وهي تقول:

- صدقني أنا لم أعد أصلي ولا أعرف شيئا عما تتحدث عنه.

اقترب منها وأمسك كلتا يديها بهدوء ونظر إلى عينيها لترى في عينيها بريقا لدمع ما.. وهو يعيد عليها السؤال مجددا، ولم يكن أمامها حينها إلى أن تقول وقد شعرت بالأمان:

- الله هو الواحد، هو الخالق، هو الرازق وهو المحيي والمميت..

وحدثته عن صفاته العلى جميعا وعن أسمائه الحسنى كلها.

قال:

- وما هي الصلاة.

قالت:

- هي صلة العبد بربه وعمود الإسلام.

فسألها:

- وما الإسلام؟

قالت:

- هو دين الله.

قال بلهفة:

- وإلى ما يدعو؟ وما الذي ينهي عنه؟

فقالت:

- إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.

فقال متعجبا من جمال الإسلام وهو يتذكر فعله القبيح بالمسلمين:

- كيف أكون مسلما.

قالت:

- تشهد شهادة الحق وتؤمن بالله وتعمل صالحا.

ترك يديها وأمارات التأثير بادية عليه ورحمة غير مصدقة للذي يحدث معها، هي لم تفهم سبب دخوله إلى البيت على ذلك الحال ولا استطاعت أن تفهم سرّ كل تلك الأسئلة عن دينها.. لكنها استبشرت خيرا وإن لم يقل لها شيئا.

توجه لي بعد ذلك إلى غرفته ورحمة تتبع خطواته، وقف عند باب تلك الغرفة وهو يفكر في قولها وفي القيام بعمل صالح يكفر به عن أخطائه ليقول لها:

- جهزي الصبي سرجعه غدا إلى أمه.

شعرت رحمة حينها بانقباض في الصدر فهي لا تريد أن تفارق ذلك الصبي والذي أصبحت تراه شيئا منها وإن شعرت بالسعادة لأجله.

سألته عن سبب قراره هذا وهو متعلق بالصبي ولا يمكنه فراقه.. عليها تجره للحديث إليها عن سرّ تغيره المفاجئ.

لكنه سكت ولم يجبها واكتفى بالقول:

- جيفنك.. أنت أيضا جهزي أمتعتك، غدا صباحا ستنتظرك عند الباب سيارة شرطة لتنقلك إلى بيت أهلك.

وهو يغلق عليه باب غرفته أخبرها أيضا أنه في الغد سيعمل على إطلاق سراح أهلها جميعا.

المشهد الخامس والعشرون

لا منطق يخضع له الحب.

لم يعد بإمكان رحمة أن تصدق كل الذي حدث معها، سارت بخطوات متثاقلة صوب غرفتها، جهّزت سرير الصبي لينام.. وأخذت تفكر مليا في كل الذي قاله لي، كيف يمكن للحظات أن تحمل كل ذلك التناقض وكل ذلك التغير الحاد؟

لما عاد لي إلى البيت خائفا؟ ما الذي أفزعته؟ ولما يسأل عن الإسلام وعن تعاليمه بكل ذلك الحب وبكل تلك الرغبة الجارفة؟

كيف قرّر إطلاق سراح أهلها في لحظة يئست فيها أن تراهم مجددا؟ وجريمتهم التطرف، والقانون في شينجيانغ قد يغفر كل شيء إلا ذلك الجرم، وكيف سيواجه لي كبار المسؤولين الأمنيين إن سألوه عن سبب قراره ذاك؟

طال سهرها وهي تفكر في قوله:

- أنت أيضا جهّزي أمتعتك غدا صباحا ستنتظرك عند الباب
سيارة شرطة لتنقلك إلى بيت أهلك.

هل قال حقا تلك الكلمات؟

وكيف أذن لها بالعودة إلى بيت أهلها وهو الذي بذل قصار جهده
لتكون معه ولتكون له وحده، هل شعر أن جيفتك لا يمكن أن
تحبه أبدا؟

كانت سعيدة لأجل إطلاق سراح أهلها ولكنها لم تكن متأكدة إن
كانت سعيدة بعودتها إلى بيت والديها، تمنّت ذلك طويلا كما
تمنّت الهرب من بيت لي وفي هذه اللحظة التي أذن لها بالعودة
تجد في نفسها شيئا من ذلك.

هي لم تحب لي يوما ولكنها لم تشعر بالكره اتجاهه أيضا رغم
كل الذي حدث لها ولأهلها بسببه.

تساءلت رحمة:

- هل هو الإسلام عرف طريقه إلى قلب لي.

ولكن لا يمكن أن يكون كل ذلك التغير سببه الإسلام، فدين الله لا يُشعر معتنقه بالخوف والضياع، لا بد أن هناك سرا ما يخفيه غير رغبته في اعتناق الإسلام.

لذلك انتظرت رحمة بلهفة بزوغ فجر يوم جديد لتكلم لي وتعرف سره، يجب عليها أن تكلمه قبل أن تغادر هذا البيت.. على الأقل كلمة للوداع.

لعلها تستدرجه للحديث إليها لتعرف أي جواب عن تلك التساؤلات التي حرمتها النوم طوال الليل.

لكن لم يكن لها مبرر شرعي كاف للحديث إلى رجل ترى قربه إثما.. وإن كان زوجها على الورق، تريد أن تقترب منه وهي غير مكروهة على ذلك ودينها يمنعها مادامت قادرة على الابتعاد.

لم تجد مسوغا كاف لتدق باب غرفته صباح ذلك اليوم إلا أن تسأله عن أم الصبي سطوق، وفي حقيقة الأمر لم يكن يهمها أن تعرف الإجابة بقدر رغبته في أن تودع زوجها الذي أحبها بطريقته الخاصة.

تشعر برغبة ما في أن تشكره على شيء لا تعرف ما هو، ربما هي مدينة له على أنه لم يرغمها على أكثر شيء قد يحطم امرأة.

وقفت عند غرفة لي.. مدت يدها لتدق بابه تريد أن تستأذنه للدخول.. لكنها تذكرت أنه لم يدق باب غرفتها يوما ولم يستأذنها ليدخل.. فكيف تفعل هي ذلك؟

أرغمت نفسها على شيء لم تكن مقتنعة بأنه الصواب.. ودقت الباب برفق بعد طول وقوف أمامه.. ولكنه لم يفتح الباب، فدقت مرة ثانية وثالثة ولكن دون جدوى.

لتجد نفسها تفتح الباب وتدفعه لتدخل مسرعة فقد شعرت أن شيئا ما وقع له، حين دخلت لم تجد أي أحد في الغرفة، فتساءلت في سرها:

- لما دخلت مسرعة؟ ولما انتابني الخوف على رجل لا يعنيني شيئا؟

التفتت يمينا وشمالا قبل أن تغادر الغرفة لتقع عينها على ورقة بيضاء وضعت على طاولة صغيرة بجانب سرير لي، مدت يدها إليها بلهفة لتحملها ودقات قلبها تتسارع بشكل غير مفهوم.

فتحتها على عجل لتجده قد كتب فيها:

- ستجدين والديك في انتظارك.. سامحيني.. وداعا.

قرأت الرسالة أكثر من مرة وكررت كلماتها القليلة مرارا لتتأكد أنها لم تترك أي كلمة منها دون قراءة.. قبل أن تعيد طيها وتركها في المكان الذي كانت فيه على الهيئة التي كانت عليها، لكي لا تفضح نفسها أمامه فقد دخلت غرفة كان يجب عليها أن لا تدخلها.

نظرت إلى ساعة يدها.. إنه الوقت المحدد، حملت الصبي ونزلت لتجد رجال الشرطة في انتظارها طلبت حينها من أحدهم إنزال حقائبها.

ركبت السيارة و سرعان ما ابتعدت عن بيت لي.. لتلتفت حينها إلى الخلف وهي تكفكف دموعا لم تستأذنها لتنزل خلسة.

ستعود إلى أحضان والديها، ستعود إلى حياتها السابقة، قد تضطر للعمل وقد تُرغم على الرقص في الشارع مجددا وأبواب معسكرات إعادة التثقيف لا تزال مفتوحة.. وقد تدخلها وأهلها

مرة أخرى دون أن تجد من يخلصها منها، وشعرت رحمة أن الكابوس لم ينتهي بعد.

في نهاية اليوم عاد لي إلى البيت.. لم يجد من يستقبله عند الباب، لم يسمع صوت أي أحد.. عاد البيت هادئاً كما كان، تمنى لو سمع صراخ الصبي سطوق ولو سبّب له صداً.. توجه صوب غرفته.. تفقد الرسالة ليجدها مغلقة كما تركها.

شعر بالحزن لأجل امرأة علمته كيف يحب دون أن تحبه هي، لم تكلف نفسها عناء الوقوف عند باب غرفته لتودعه.. والدليل أنه وجد الرسالة مطوية كما تركها، لقد غادرت إذن دون أن تلتفت إلى الخلف.. كمن يطوي صفحة كتاب ممل ويلقي به جانبا

توجه صوب المطبخ وأخرج من الثلاجة بعض المعلبات فهو لم يأكل شيئاً من يومين.

جلس يفكر بعمق بعد تلقيه للإنذار الثاني منذ ارتدائه للبدلة العسكرية، الأول بسبب زجه بالسائح السعودي في تلك

المعسكرات والثاني بسبب إخراجه لعائلة موجان من تلك المعسكرات أيضا.

خطأين اثنين بسبب إدمانه لامرأة.

فكر في الذي جرى له وفي كل قراراته التي اتخذها خصوصا السماح للمرأة التي أحبها بأن تغادر بيته وهي لا تزال تسكن قلبه.

كان مشغول الباب خائفا لا يدري ما الذي سيحل به إن هو سار على تلك الطريق التي تراوده نفسه للسير عليها.

وهل تستحق تلك الطريق أن يسير عليها وإن ضاعت معها وظيفته ومستقبله.. وربما حياته أيضا، يفكر في الإسلام وهل هو المخرج من كل همومه ومن الكل الذي علمه عن ماضيه ويعجز عن الحديث عنه حتى أمام نفسه؟ أم أن الإسلام لضابط في شينجيانغ يعني الانتحار؟

كيف يُسلم وقد وُكِّل إليه محاربة المسلمين؟

هل سينجو إن ارتكب الخطأ الثالث؟ وهل سيكون ذلك الخطأ بسبب المرأة نفسها؟ وهو يرى أنه يجب عليه أن يرتكب أكثر من خطأ في المستقبل لكي لا يتناقض مع ذاته ومع ما يدعوه إليه قلبه.

كان خائفا على نفسه وعلى جيفتك.. فالسلطات قد تعيد موجان وأهل بيته للسجن وقد لا يملك حينها القدرة على تقديم المساعدة لامرأة لم تقل كلمة وداع.

يُدق الباب فيدب الرعب في قلب لي ويُخفي حينها نسخة مترجمة من القرآن الكريم.. وهو يقول:

- لحظة.. أنا قادم.

يفتح الباب ليجد جيفتك أمامه تحمل سلة طعام.. استقبلها بابتسامة قلبه قبل شفتيه، ودخلت وهي تقول:

- لي لقد احضرت لك العشاء.. أنا متأكدة أنك أصبحت معتادا على طبخي.

وأغلق الباب خلفها وهو يقول في نفسه:

- لا أنا لم أعتد على طبخك بل أعتدك قربك حد الإدمان.

وضعت الطعام على الطاولة ليمسك لي كلتا يديها ويسحبها إليه
برفق ليضمهما.. غير أنها امتنعت وأفلتت يديها وجلست إلى جوار
تلك الطاولة.

أخبرته أنها ستكون له وحده برضاها إن هو أسلم ولو سرا..
وطلبها للزواج مجددا من والدها.

قال حينها:

- لن يكون ذلك يا جيفنك.

نظرت إليه باستغراب وتساءلت كيف يمكنه أن يردّها وهي
متأكّدة أنه يحبّها.. وقد خرجت من بيت والديها وعادت إلى بيته
ليضمّهما سقف بيت واحد.

لم تخبر والدها أن لي تركها تذهب حرة، بل قالت أنه أذن لها
بزيارتهم فقط ويجب عليها أن تعود ليلاً.

كانت متأكّدة أنها على خطأ حين عادت إلى بيته ولكنها لم تعد
تُحكّم عقلها.

لقد سيطر عليها إحساس غريب مزيج بين شعورها بالذنب لتركها لرجل أحبها وتشعر بالامتنان له على شيء لا تدري ما هو، وتحن له وإن كان هو الرجل الخطأ.

سألته وهي تستأذن للخروج لتعود مجددا إلى بيت والديها:

- لماذا لن يكون ذلك يا لي؟ أأست ترغب في الإسلام ديناً؟ أم أنك لا تريدني زوجة لك؟

لم يجبها لكنه منعها من المغادرة ليخبرها أن هذه الليلة هي الليلة الأخيرة لها في بيته والليلة الأخيرة له معها، لم يعد هناك أي وقت ولو لأجل الحب، هناك أمور كثيرة وقعت في وقت قصير والأمر لم يعد تحت السيطرة.

منعها من المغادرة ليحدثها طويلاً عن ماضيه.. وعن الإسلام.. وعن كل الذي كان يدور في ذهنه.. وعن كل شيء تنوي المؤسسة الأمنية فعله، وشرح لها الخطة التي ينوي تنفيذها ليواجه الخطر القادم، شرح لها كل شيء حتى تثق به ولتستطيع بعدها تنفيذ كل الذي سيقوله بحذافيره.

فكانت ليلتهما الأخيرة هي الليلة الأولى والتي لن تتكرر أبدا.. ليلة
الحلم والثقة.

المشهد السادس والعشرون

حلم الحرية وحده يستحق المجازفة.

لم يبق سوى ساعة واحد قبل أن ينطلق القطار العابر للقارات من شينجيانغ باتجاه تركيا مروراً بخمسة دولة وبحرين وقارتين والجميع في انتظار هذه اللحظة، لحظة الخلاص من جحيم شينجيانغ.

موجان وزوجته وابنتها محمود وأم حبيب الله وبناتها أيضاً، الخوف كان يملأ قلوبهم جميعاً وهم وسط البضائع في إحدى عربات القطار، والأمل يحذوهم في غدٍ أفضل.

لم تشارك رحمة أفراد عائلتها الرحلة ذاتها ولكنها شاركتهم الخوف وقاسمتهم الأمل ذاته وهي تتجه صوب المطار لتغادر شينجيانغ صوب تركيا وفي رحلة جوية مباشرة صوب إسطنبول.

لقد تكفل لي بتوفير تأشيرة لها نحو تركيا للحصول على لجوء في تلك الدولة التي تعود جذور الأويغوريين إليها لذلك يتركز فيها

غالبية الفارين من وطنهم والفارين بدينهم من جحيم المعسكرات.

لم يكن بإمكان لي أن يوفر تأشيرات سفر لأفراد عائلة موجان فالسلطات لا تسمح لأفراد هذه الأقلية بالهجرة وتراقب تحركاتهم عن كثب والتوجه صوب حي آخر غير الذي يسكنه أي فرد من الأويغور قد يكون سببا كاف للاعتقال والتهم جاهزة مسبقا، فكيف بالخروج من البلد بأكمله؟

وجيفنك كانت الاستثناء الوحيد فهي زوجة رجل أمن وبإمكانها أن تهجر متى شاءت وإلى أي مكان شاءت، ورغم ذلك لم تكن مقتنعة بفكرة السفر لوحدها في رحلة جوية وترك أهلها يعانون ويلات الهجرة غير الشرعية برا.

كانت ليلة جيفنك الأخيرة مع لي طويلة وهو يشرح لها تفاصيل خطته ليقنعها في النهاية بفكرة الهجرة بمفردها فهجرتهم معها جوا مستحيلة وهجرتها معهم برا لم تكن لتفيد أهلها في شيء.

احتمال نجاح هجرة موجان وأهله في ذلك القطار محدودة وأسماك الأعماق قد ينتهون لتحركهم ذلك في أي لحظة ولكن

الحرية تستحق المجازفة والضابط لي هو من وضع خطة الهرب بنفسه وهو الذي يعمل على تضليل الأسماك والتستر على عائلة موجان.

إن نجحت الخطة فسيصلون إلى تركيا في قطار البضائع ذاك بعد 12 يوما ويوشان المسؤول عن القطار صديق مقرب من الضابط لي وقد وعده بأن يتكفل بنقلهم والتستر عليهم.

لم يكن من السهل الإفلات من يد الأسماك ولكن وجود ستة ممرات اقتصادية برية لمشروع الطريق والحزام.. أربعة منها تخرج من شينجيانغ باتجاه دول العالم فصح مجالا واسعا للهرب ولو بالاختباء في القطارات المتجهة صوب أكثر من ستين دولة.

عم السكون واضطربت أنفاس الجميع من خلف تلك البضائع حين فُتح باب العربة الرابعة عشر والتي يختبأ فيها موجان وأهله ليقف رجلين قرب تلك البضائع.

لم يكن أحد يسمع ما الذي يدور بينهما من حوار لكن يبدو أن أحدهما يحاول إقناع الآخر بأن يسمح له بتهريب شيء ما، حين

فهم موجان وأهله ذلك هدئت نفوسهم قليلا، على الأقل
الرجلين ليسا من رجال الأمن.

قام الرجلين بإزاحة بعض تلك البضائع ليصيب الدهول الجميع
ليس لرأيهم الضابط لي والمسؤول يوشان بل لرأيهم جيفنك
والصبي سطوق.. فقد جاء بهما الضابط لتهريبهما في نفس
القطار.

لم يوافق يوشان في البداية فالصبي قد يبكي في أي لحظة أو في
اللحظة الخطأ والنتيجة هي نهاية الجميع ويوشان سيكون أول
المعاقبين ولكن لي وعده بامتيازات كبيرة إن نجح في إيصالهم.

وبسرعة تم إعادة تلك البضائع إلى مكانها، اقتربت الأم من رحمة
والدهشة تعلو محياها، اقتربت لتضمها ولتسألها عن سبب
انضمامها إليهم.

لم تكن رحمة تريد أن تخبر أمها بالتفاصيل فالصمت لحظتها
أفضل طريقة للنجاة في رحلتهم المجنونة تلك لكن السؤال لم
يكن سؤال أمها وحدها فقد أحاط بهما جميع أفراد العائلة

يريدون معرفة الذي وقع معها فالخوف والوساوس ملأت قلوبهم، فكان لابد من شيء من التفاصيل ولو همسا

كل شيء تغير في آخر اللحظات فقد رفضت جيفنك أن تسافر وتترك الطفل سطوق بعد أن اكتشفت أن أمه قد ماتت وشعرت أنها ملاذه الوحيد.. والوحيدة التي يمكن أن تكون أمًا له بدل أمه.

وسفر جيفنك جوا مع صبي لا يربطها به شيء سوى روابط الدين والانسانية أمر مستحيل.

لم يكن بإمكان زوجة موجان أن تخفي حزنها لرأيت ابنتها معهم فالهجرة السرية في قطار للبضائع محفوفة بالمخاطر وقد تكون نهايتها مؤلمة.

انطلق القطار من إقليم شينجيانغ والوجهة كازاخستان ثم أذربيجان وصولا إلى جورجيا وفي النهاية تركيا ولكن قبل أن يصل القطار إلى المحطة الأولى داخل الإقليم كان يجب على يوشان أن يستقبل لجنة للتفتيش.

لم يسبق له وأن استقبل أي لجان في الماضي داخل الإقليم إنها المرة الأولى التي يتعامل فيها مع وضع كهذا لذلك شعر بقليل من التوتر لكنه أبدى تماسكا أمامهم.

قاموا بمراقبة وثائقه ووثائق رجاله وبوصلات الشحن وغيرها من الوثائق قبل أن يقوموا بتفتيش عربة واحدة ويغادروا بعدها.. وهو لا يدري هل جاءوا لتفتيش عربة واحدة فقط؟ أم أن قوارير النبيذ التي أهداها لهم كانت كافية لتنقضه من ذلك الموقف؟

لم يمر كثير من الوقت لتصعد لجنة ثانية وثالثة للتفتيش أيضا حينها بدأت ملامح التوتر تبدو على يوشان.. ولم يعد بإمكانه أن يحتمل أكثر ولم يعد سعيدا بتلك الامتيازات التي وعده إياها صديقه فحياته أغلى، كل ذلك جعله يعيد تفكيره ويتصل بالضابط ليعتذرله عن إتمام المهمة.

كان يوشان خائفا فالتفتيش المتواصل يوحي بأن رجال الأمن على علم بشيء ما ولكن دون أن يتأكدوا.. ويعني أيضا أنه سيكون مراقبا طوال الطريق.

انتظر يوشان حلول الظلام ليتصل بالضابط لي للمرة الأخيرة
وحُفِضَتْ بعدها سرعة القطار في منطقة نائية معزولة داخل
شينجيانغ وقريبة من حدود دولة كازخستان.

يجب أن ينزل الجميع والمسؤول عن القطار لن يسمح بأن
يضيحي بحياته لأجل أي أحد، لأجل ذلك جمع يوشان رجاله
وتوجهوا صوب العربة الرابعة عشر لإلقاء الفارين خارج القطار
إن رفضوا النزول بمحض إرادتهم.

وجه يوشان مسدسه صوب أفراد عائلة موجان طالبا منهم
القفز الواحد تلو الآخر ومن دون نقاش، لم يتوقعوا أن
هجرتهم ستفشل بهذه السرعة وقبل الخروج من إقليم
شينجيانغ.

كان قول يوشان صادما للجميع.. فهو لم يُخَيِّرْهم بين الموت
والنجاة ولكنه خَيَّرْهم بين طرق الموت المتعددة.. وعلت وجوههم
حينها نظرات دهشة وأمارات خوف واستغراب ولكن لم يكن
أمامهم إلا تنفيذ ما طلب منهم فعله بالقوة.

قفز محمود دون نقاش واستلم الصبي من يد رحمة لتقفز بعده تلتها الأم جميلة وعجز موجان عن اللحاق بهم ليُدفع بالقوة خارجا، في تلك اللحظة بالذات تلقى المسؤول عن القطار اتصالا من الأسماك وكانت المكالمة مقتضبة وواضحة ولم يكن بإمكانه أن ينفي شيئا ولا أن يبرر ولا أن يعترض على أوامرهم.

- وجه من معك من الأويغوريين صوب العراق.

لم يكن بإمكانه أيضا أن يقول لهم أنه تخلص من بعضهم وألقاهم خارج القطار وأنه لم يبق معه سوى أم حبيب الله وبناتها.

بقيت عيني محمود مشدودتين صوب القطار في انتظار نزول بنات عمه وأم حبيب الله ولكن باب العربة الرابعة عشر أغلق وأعطيت الأوامر بزيادة سرعة القطار لتدارك الوقت الضائع ولم يكن بإمكانه أن يفعل لأجلهم أي شيء وكان يجب عليه أن يلتفت إلى والده الواقع على الأرض.

فقد وقع موجان والتوت ساقه وأحس بألم حاد وبدأ معه يشعر بأنه كان مخطئا حين غادر بيته.. لم يكن متحمسا لهذه الهجرة

منذ البداية رغم أنه لا حل غيرها للنجاة.. ولكن هذه الهجرة هي الهروب من العذاب إلى العذاب نفسه.

لم يكن من السهل أن تقنع جيفنك أهلها بالهجرة وفي اليوم الذي تلى خروجهم من المعسكرات ووفق خطة وضعها رجل أمن.

فكرة الهجرة ليست جديدة ولكن الأيام التي قضوها في تلك المعسكرات لا تُنسى، يمكن ليوم واحد فيها أن ينسي الرجل اسمه ودينه.. فكيف تبقى فكرة الهجرة تراوده وهي جريمة أكبر من التطرف ذاته؟ كان حاجز الخوف يمنعهم من الإقدام على هكذا خطة.

مزق محمود قطعة قماش من ثوبه وأخذ يربط رجل والده والذي كان يتأوه قائلاً:

- لم أكن واثقاً من الضابط لي منذ البداية والسرعة التي وضعت فيها الخطة والسرعة في التنفيذ كانت خطأ كبيراً لتجيبه رحمة وهي تسند ظهره:

- إن الضابط لي موضع ثقة.

ازداد حينها غضب موجان فكل المشاكل التي وقعت له كان سببها ذلك الضابط الذي قلب حياتهم رأسا على عقب.

قطع محمود جدالهما قائلا:

- هذا ليس وقت ولا مكان هذا الكلام.

لكن رحمة أبت أن تسكت ففي جعبتها شيء لم تعد قادرة على إخفائه عن أهلها لذلك قالت لوالدها:

- إن لي أحد أفراد العائلة.

نظر إليها موجان نظرة ازدراء دون أن يعقب بكلمة، كيف لابنته أن تنظر إلى الجلاد على أنه واحد منهم؟ وهل جُنّت حتى تعتقد أنه زوجها بالفعل؟

لكن محمود شعر أن خلف كلمات رحمة سرا ما لا علاقة له بكون الضابط لي زوجا لها على الورق، لذلك سألها ليعرف السر وهو الذي كان قبل قليل يطلب من الجميع السكوت.

لكن لم يكن بإمكان رحمة أن تجيب ولا كان بإمكان محمود أن يكرر سؤاله فقد استلقى الجمع أرضاً للاختباء فمركبة شرطة تقترب منهم.

ولم تتوقف إلا أمام أرجلهم وكأن سائقها على موعد مسبق معهم في تلك المنطقة المعزول ولم يكن بإمكان موجان وأهله الفرار من القدر لحظتها فقد تجمد الدم في عروقهم جميعاً.

ينزل زجاج نافذة المركبة ليطل لي قائلاً:

- هيا اركبوا بسرعة.

تناسى حينها موجان ألمه من شدة سعادته برؤية رجلٍ لم تكن رؤيته من قبل مرادفة لغير التعاسة والألم، لكن لي لم يكن سعيداً لعدم رؤيته أم حبيب الله وبناتها معهم.

ركب أفراد العائلة في تلك المركبة المدرعة وابتعد لي كثيراً عن تلك المنطقة ليتوقف بعدها لتقديم الإسعافات لموجان وليسأل عن بقيت أفراد العائلة قبل أن ينطلق مجدداً.

سأل موجان لي ليعرف كيف استطاع العثور عليهم بتلك السرعة إلا أن لي لم يجبه فقد كان يفكر فيما آلت إليه حياته، ها هو الآن يهرب أفرادا من طائفة حاربهم طويلا وبمركبة للدولة التي كان يقتلهم باسمها.

كان لي يعلم أن تهريب أفراد من الأويغور وعلى مركبة عسكرية أكثر من مجرد خيانة للوطن ولكن كان يجب عليه أن يخون وطنه ليكمل مهمة أمن بها، ثم إن الوطن هو المُبتدر بالخيانة.

ولم يعد هناك شيء ليخسره لابد أنه مراقب وأنه يتم البحث عنه، إنها ساعاته الأخيرة التي يجب عليه فيها أن يطيع ضميره ويوفي حق دم يسير في عروقه.

لي أحد أفراد الأمن ويعرف أشياء كثير عن خططهم وأساليبهم.. ولكنه لم يفهم لما ترك يوشان بقية أفراد العائلة على متن القطار، ولما لم يعد يرد على اتصالاته؟

سأل موجان لي أكثر من مرة عن الوجهة إلا أنه لم يجبه فقد كان منشغلا بالتفكير في حل للمأزق الذي هو فيه، سألته جيفنك أيضا لكنه لم يجبها إلا بقوله.

- دعيني أفكر.

قال لها ذلك دون أن يرفع بصره للمرآة العاكسة لينظر إلى ملامح وجه حبيبته الجالسة في المقعد الخلفي فلا وقت له لشيء آخر غير التفكير، وربما لم يرفع بصره لينظر إليها لكي لا يرى الخوف يملأ زرقة عينها.

تعود فكرة أنه مراقب لتجول في خاطره وكان لابد عليه حينها العمل بطريقة مغايرة، وتغيير وجهة الهجرة هو أول أسلوب لذلك توجه بهم من الشمال إلى الجنوب صوب كاشغر.

واستعمال المركبة العسكرية سيسمح لهم بتجاوز الحواجز الأمنية بسهولة.

لم يعد لي يعمل على تهجير عائلة موجان فقط بل كان لابد عليه أن يهاجر معهم فبقائه بعد الآن في شينجيانغ يعني الموت وهجرته معهم أصبحت ضرورية أيضا لتسهيل هجرتهم.. لحظات الحرية بالنسبة إليه أصبحت محدودة ويجب أن يستغلها لإنجاح مهمة آمن بها.

لم تعد هناك الكثير من الخيارات والحل الوحيد المتاح هو
إيصالهم إلى قطار بضائع آخر ينقلهم إلى ميناء غوادر جنوب
باكستان عبر ممرات الحزام دائما ومن ذلك الميناء بإمكانهم
الهجرة إلى أي بلد عربي أو بلد مسلم من آسيا أو أفريقيا.

المشهد السابع والعشرون

جاسوس

خلف كل حبة رمل لإعادة الوليد إلى بطن أمه.

تمت المهمة بنجاح وركب الجميع في أكثر من باخرة من ميناء غوادر صوب وجهات متعددة، بإمكان لي الآن المغادرة.. ولكنه بقي في ذلك الميناء فهو يرى أن مهمته لم تنته بعد، كان لابد عليه أن يواصل العمل على إخفاء أي أثر يمكن أن يدل أسماك الأعماق عن الوجهات التي سلكها أفراد عائلة موجان.

كان لي منتهيا للغاية ويده كانت أقرب ما يكون إلى زناد مسدسه فهو يعلم أنه مراقب.. ولكن ليس بإمكانه أن يميز المخبرين عن غيرهم.. فهم جزء من نسيج المجتمع وأعدادهم كبيرة على طول الحزام والطريق، خصوصا في باكستان.

ارتطامٌ بالأرض مع صراخ مرتفع.. يلتفت لي إلى الخلف ليجد فتاة في مقتبل العمر قد وقعت على الأرض والتوت ساقها، اقترب منها

ليقدم المساعدة ولكن لم يكن بإمكانه حملها لوحده فقد كانت تتألم بشدة.

أسرع صوبهما رجل يبدو أنه صياد ترك سنارته جانبا ومد يده هو الآخر للمساعدة على حمل تلك الفتاة.

قالت أن زوجها ركن سيارته قريبا من الميناء و طلبت منهما أن يوصلاها إليها ويتصلا به، مد لي يده ليفتح باب السيارة عند وصولهم إليها، ألقى الفتاة برفق على المقعد الخلفي للسيارة.. حينها ابتسمت له الفتاة ابتسامة عريضة وسحبته إليها بقوة جعلته يرتعي في حضنها.

أغلق الصياد باب السيارة وركب من الأمام بجوار السائق.. وهو متسؤل يذكر لي جيدا أنه منحه صباح ذلك اليوم قطعة نقدية.

لم يكن بإمكان لي أن يقاوم وقد أخرجت تلك الفتاة مسدس بيريتا وصوبته نحو رأسه.. وخمسة عشر رصاصة حية كانت ستخترق جمجمته لو تحرك، وقع لي في يد أسماك الأعماق ذات اليد الطويلة وليس بإمكانه إلا أن يستسلم.

وبهدوء تام تم اعتقاله دون الحاجة لأي طلق ناري.. وأثناء العودة إلى شينجيانغ كان السكوت سيد الموقف فلم يكن يتكلم أي أحد من رجال الأعماق إلا للإجابة على هواتفهم، مزاجهم كان سيئا للغاية فهم لم يكونوا راضين عن أدائهم.. والعقوبة تنتظرهم جميعا، فمهمتهم كانت أكبر من مجرد اعتقال خائن.

فشلهم لا يكمن في هروب موجان وعائلته ولكن في عدم معرفتهم نية لي.. والتدخلُ كان يجب أن يكون قبل تفكيره في التنفيذ.

التجسس بالنسبة لأسماك الأعماق أصبح تسلا هادئا في وضوح النهار، ولهذا التجسس الناعم قدرة هائلة على اختراق كل الأنظمة وكل الحكومات وكل القوى العالمية الصديقة منها أو المعادية، وكل شخص مهم في بلد كبير قد يجد نفسه زوجا أو صديقا لفتاة جميلة ولطيفة للغاية ذات عيون ضيقة ودون سابق إنذار.

لي يعلم جيدا أن أي مواطن من بلده يمكن أن يكون فردا من أسماك الأعماق أيا كان مكانه في هذا العالم.. يجمع علما، يلتقط صورا، ينقل تكنولوجيا، يسمع خبرا قبل أن يذاع الخبر

أو أي شيء آخر، والغاية هي الوصول إلى المعلومة أولا والسبق في التنفيذ.

ساعات من التعذيب دون أن يحصل أولئك الأسماك على أي معلومات من الضابط الخائن، لم يخبرهم عن وجهة الذين عمل على تهريبهم.. ولا كم كان عددهم.. وإن كان لي متأكدا أنهم على علم بكل تلك التفاصيل، سألوه مرارا إن كان له أي نشاط آخر معاد للوطن ولمصالحه لكنه لم يكن يرد.

لم يكن المخبرون أيضا يتوقفون عن تعذيبه إلا في اللحظة التي يخشون فيها موته.. حينها فقط يحضر الطبيب لإنقاذه.. ليعود للتعذيب مجددا حين يتماسك ويستعيد وعيه.

اعتقل وعذب ولكنه كان سعيدا لأجل أولئك الذين أنقذهم وساعدتهم على الهروب، يشعر مع الألم بنشوة ما، ربما لأنه كفر قليلا عن كل ذنوبه بتحرير ومساعدة عائلة موحان.

لم يكن يتألم بشدة إلا حين يتذكر حبيبته وأمه.. لحظتها فقط يتغلب عليه شعوره بالألم.. وإن كان راضٍ لأنه أبعدهم عن الخطر.

كان يتألم أيضا حين يتذكر أنه أهان أمه وعذبها وطردها من مكتبه أكثر من مرة، لذلك لم تكن له الجرأة ليقف أمامها بعد أن علم أنها أمه ليقول لها أنه ولدها الضائع.

ساعد أمه على الهرب هي وأخواته اللاتي لم يسعفه الحظ ليعرف أسمائهن.. ولا لينظر إلى وجوههن.. ومن دون تعارفٍ كان الوداع.

وكيف يواجههن وهو الذي تسبب في قتل أخيه من دون ذنب يذكر.

في تلك الليلة الأخيرة التي قضاها مع جيفنك في بيته حدثته طويلا عن الإسلام، وأخبرته أنه يَجِبُ ما قبله.. وحثته على أن يواجه أمه بالحقيقة ولكن شرخا كبيرا في قلبه منعه من الوقوف أمامها مجددا.

كيف سيقول لها أنه حارب دينا كان يجب أن يكون دينه الذي يدافع عنه منذ البداية؟ وهل ستنظر إليه بعين الرضى أم بعين الاحتقار؟ وهو الذي استقوى على الضعفاء من بني جلدته وعلى العُزْل من الأويغور.

لأجل ذلك كله تركها تذهب دون أن يضمها.. ودون أن يجرب كيف تنطق أحرف كلمة أُمي من جديد.. وهو الذي حُرِمَها طوال حياته ومنذ كان عمره أربع سنوات، فهو ابن الدولة الذي أنفقت لأجله الكثير لتُخرج منه رجلا من غير أحاسيس، ليكبر في النهاية ويخون وطنه.. وربما الوطن أيضا كان خائنا حين حرّمه أمه وقتل والده.

لا زال لي يذكر اللحظات الأخيرة له في ميناء غوادر، لم يستطع في تلك الأثناء أن يقنع ربان أول باخرة ستغادر الميناء بترحيل موجان وعائلته.

ولم يكن يريد في تلك اللحظات أن يضيّع أي وقت.. وكان لابد أن يستقل أفراد عائلة موجان أي باخرة ستغادر الميناء وأيا كانت وجهتها.. لكن مفاوضات لي مع ربان أول باخرة بائت بالفشل فهو لم يقبل بالمجازفة.

الخدمة الوحيدة التي استطاع ربان تلك الباخرة تقديمها مقابل المال هو السماح لهم بالانتقال إلى باخرة أخرى انطلاقا من

باخرته، وهدف لي من ذلك هو التحرك بشكل مغاير وغير متوقع لتضليل الأسماك.

باخرة ثانية وثالثة قبل أن يجد لي ربانا مستعدا لتهريبهم مقابل مبلغ كبير، لكن لي لم يكن مهتما لذلك فسعادة جيفنك لحظتها كانت تكفيه.. إلا أن تلك السعادة لم تدم طويلا فالربان رفض نقل الصبي سطوق من دون أمه.

كان اختبارا صعبا للجميع فرحمة لم تستطع التخلي عن الصبي سطوق وتركه لوحده في الميناء.. وموجان لم يكن ليقبل بفكرة الهجرة السرية دون ابنته، والوقت لم يكن في صالح الجميع.

الباخرة ستنتقل والربان لم يعد قادرا على الانتظار أكثر.

حمل لي الصبي بين ذراعيه وأمسك يد جيفنك ونزل من تلك الباخرة دون نقاش.. ودون أن يواصل الاستماع لتلك الآراء المختلفة.. فهو أعرف بحجم الخطر المحدق بالجميع.

كان يجب عليه أن يتخذ موقفا حازما وأن يواصل تحركاته غير المتوقعة.. وهجرة جيفنك مع ذلك الصبي لوحدهما قد تكون في صالحهم جميعا، فهجرة الجميع في باخرة واحدة يقلل من

احتمال نجاتهم.. وتفرقهم قد يكون سببا في نجاة بعضهم على الأقل.

حين تذكر لي آخر كلمات جيفنك وهو في زنانيته تلك سألت دموعه على خديه دون استئذان.

تذكر كيف أدخل جيفنك إلى تلك الحجرة الصغيرة في إحدى بواخر البضائع وناولها الصبي سطوق.. ومد يده ليغلق باب تلك الحجرة إلا أنها منعتة من إغلاقها وهي تقول:

- لي ماذا عنك؟

لم يجيبها لحظتها وأغلق الباب وتركها دون كلمة وداع.. دون قبلة وداع قد تكون الأولى والأخيرة.. ودون أن يقول لها أنه أحبها وإن لم تبادله المشاعر ذاتها.. أغلق الباب بقوة لكي لا يضعف في الوقت الخطأ.

مهمته لم تكن قد انتهت لحظتها بل بدأت، كان يجب عليه أن يواصل تضليل أسماك الأعماق ومحو أي أثر قد يوصلهم لعائلة موجان، لذلك لم يهرب مع زوجته جيفنك.

كان يعلم يقينا أنهم أقرب إليه من شراك نعله ولكنه لم يكن قادرا على تمييزهم من بين كل أولئك العمال والتجار والصيادين.

- أريد سريرا.. أريد غطاء.. أريد ثيابا جافة.

كان لي ينادي على أي أحد يمكن أن يكون قريبا منه في تلك الزنزانة.. عيناه كانتا معصوبتين واليدين مكبلتين والجو بارد للغاية.. والزنزانة أشد برودة والجراح متعددة والثياب مبللة.

طلب غطاء أو أي شيء يفرشه على تلك الأرضية الإسمنتية فجاءه أكثر من دلو ماءٍ لباسا وغطاء.. واشتد البرد، ومرت أيام عديدة على لي وهو على ذلك الحال.

أصبح طلب لي الوحيد هو خرقة يربط بها رأسه من شدة الصداع الذي ما عاد يفارقه، صداع وصداع دون الحاجة لبكاء طفل ما.

وعادت الذاكرة إلى أخايد الماضي المظلمة.. فظروف الاعتقال مشابهة.. والأرضية الإسمنتية الباردة نفسها.. والثياب الرثة التي

كان يرتديها مع أقرانه من أطفال الأويغور المحتجزين.. حتى في أشد أيام الشتاء القارص نفسها أيضا.

وطبيب يلزم الأطفال أكثر من أي شخص آخر.. ليعوض نقص الطعام ونقص الحنان ونقص الألعاب.. ونقص الطفولة ذاتها.

وعادت به الذاكرة لتلك الحجرات الصغيرة التي كان يرقد فيها مع كثير من أطفال الأويغور قبل ثلاثين سنة، ذاكرة ملاً بالصياح والعويل، بكاء وبكاء للأطفال حرموا ذويهم.. ولي كان واحدا منهم.

تذكر لي بكاءه الطويل حين أبعد قصرا عن أمه، انتظر مجيئها لأيام ثم لأشهر وربما سنوات.. وبعدها ما عاد يدرك شيئا غير الحزب غير التدريب غير الوطن الذي تكفل بأن يكون أمًّا ولكن من دون قلبها ولا قبلها.

في تلك الزنزانة المظلمة والألم يشتد والبرد يشتد والصداع كذلك.. لم يكن لي ينتظر رافة من أي أحدٍ ولا لطفًا من أي كان.. غير خالق آمن بوجوده حديثا.

وكيف ينتظر اللطف وهو لا يذكر أن أحدا ما قدم له حساء
ساخنا في صباه في كل مرة كان يمرض فيها، والطبيب في دور
الأيام تلك يعرف كيف يغرس الإبر ويفتقد اللمسة الحانية.

واشتد العذاب لكنه كان صابرا صبر كل أولئك الذين عذبهم،
صابرا صبر رجل حرب كان ولا يزال مستعدا دوما للموت، وللمرة
الأولى ما عاد الموت مخيفا بالنسبة إليه وقد تبع ضميره وسار
خلفه.

وكيف يشعر بالخوف وهو يرى أنه مقبل على إله سيقيم محكمة
يوما ما بين كل المتخاصمين، دون أن تكون هناك سطوة لأي
حزب ولأي فرد؟

خطوات تقترب منه شيئا فشيئا.. تبدو عجولة نوعا ما، رفعه
جنديان وتكفل الثالث بنزع الغطاء عن عينيه.

اقتادوه صوب مكان يعرفه جيدا وإن لم يستطع أن يفتح عينيه
لحظتها.. فالمكان مُضاء بالكامل وهو لم يرى منذ أسبوع سوى
الظلام، لكنه عرف كل شيء حين استرق النظر إلى لوح يُثبت
عليه كل من حكم عليهم بالإعدام دون محاكمة.

تعجب لي من قيام رجال الأمن بخفض الإنارة تماما.. ولكن لا يهم إنها ساعة النهاية على كل حال، هو يعرف المكان جيدا.. إنه نفس المكان الذي أعدم فيه الكثير من الأويغور بيده.

كان راضيا بذلك القدر ويجب عليه أن يتجرع ذات الكأس التي أذاقها للأبرياء.. ولكن جلادوه كان لهم رأي آخر.. فالإعدام قد لا يكفي كعقوبة لمن خان وطنه بتلك الطريقة وإن كان ذلك لأجل أمه، ولأجل ذلك بالذات تم إرجاعها من أذربيجان لتقتل أمام عينيها.

لم يكن مصدقا حين رآها، كم كان لقاءها حينها مؤلما وأشد إيلاما من فراقها طوال تلك السنين، حين رآها تُوثَّق على ذلك اللوح اللعين فهم لما تم تخفيض الإنارة في تلك الحجرة.

لا بد أن يتأكد أسماك الأعماق أن لي يرى جيدا أمه وهي تُقتل أمام عينيها.. وكيف تخترق جسدها النحيف تلك الرصاصات التي تخرج من مسدسات كاتمة للصوت.

يجب عليه أن يرى كيف تتطاير القطرات الأولى لدمها وكيف تجف شيئاً فشيئاً من ذلك الدم، كيف تصرخ للوهلة الأولى وكيف تصدر شخيراً مع أنفاسها الأخيرة.

رفع صوته في لحظة اللقاء والفرق معا.

- أمي.. أمي.. أنا ولدك محمد رحمان.

حذقت فيه ملياً وعلتها الدهشة وتلعثم لسانها وتمنت أن تضمه وتشمه ولو مرة واحدة.. ولكن الجلال كان مستعجلاً فاكتفت بإشارة إلى السماء بإصبعها السبابة.. فاللقاء مؤجل.

وأسرع الموت صوبها يزفها للجنان.. ولم تُتَح لها فرصة حتى لتوصي محمد رحمان خيراً بأخواته اللاتي تم اقتيادهن وتوجيههن صوب العراق عنوة.

وعُلّق لي طويلاً مقابلاً لجثة أمه ليرى كم كان مخطئاً حين استمع لصوته الداخلي.. وحين سار خلف ضميره.. وحين اقتاده حبه إلى ما هو فيه.

المشهد الثامن والعشرون

سجون ليوسف في كل زمان.

صافرات إنذار.. عربات مدرعة ورجال مدججون بشتى الأسلحة
بألبسة سود لا تكاد ترى عيونهم والمستهدف عجوز طاعن في
السن مستجيرٌ بالأزهر.

لم يكن موجان الرجل العجوز مصدق لما يحدث له ورجال
الأمن يكبلون يديه و يجزّون شريكة حياته أمام عينيه.. وهي
تصرخ وهو مغلوب لا يملك لها شيئاً.. ليحطموا بعدها باب
البيت الذي سكنه منذ أسبوعين.. ليعبثوا بأغراضه ويتلفوا
لوحاته.

طلبَ محمود من والديه الفرار معه حين سمع بأن رجال الأمن
يمشطون المكان بحثاً عنهم، لكن موجان أصرَّ على البقاء، كان
يظن أن رجال الأمن المصري يريدون التحقيق معهم في شيء ما
ليس إلا.

لم يكن يتصور موجان أن يدخل السجن مجددا بعد أن ابتعد عن شينجيانغ كل تلك المسافة.

- هل أدخل مجددا إلى السجن وعلى يد مسلم؟ وهل في بلاد الإسلام معسكرات مشابهة للتي تركتها خلفي؟

يتساءل الرجل العجوز في سره

كان سعيدا حين دخل مصر بعد رحلة طويلة ومجنونة.. هو يرى هذه البلاد مهدا للإسلام فسعادته لا توصف بدخولها أول مرة.. وكانت سعادته أكبر وهو يعود إلى البيت الذي كان يسكنه ولده محمود لسنوات عديدة أثناء دراسته في الأزهر.

ذلك البيت ليس بعيدا عن الأزهر الشريف.. لذلك قرّر موجان منذ اللحظة الأولى أن صلواته الخمس لن تكون بعد الآن في غير ذلك الجامع.. بعد أن حُرِم من نعمة الصلاة جماعة في شينجيانغ طويلا.

منذ اللحظة الأولى التي وطأه فيها قدماه هذه الأرض لم يشعر بالغربة ولا بالحنين لوطنه.. فالوطن مكان آمن ورغيف ساخن وجسدٌ حرٌّ معافا.

وكيف يشعر بالحنين إلى وطنه وأقلامه بين يديه.. وقد بدأ منذ وصوله إلى مصر يداعبها على أي ورق يقع بين يديه.. ويباهي العرب بخطه العربي الرشيق، وكانت السعادة حينها تغمره لولا بعد ابنته التي لم يعد يعلم عنها أي شيء.

لم يكن موجان يعرف عن بلاد الإسلام وبلاد العرب إلا القليل، وقد قرأ في كتب قديمة له عن كرم العرب، عن نخوة العرب، عن شهامة العربي المسلم وأحب لأجل ذلك العرب وتعلق بالخط العربي الذي نزل به الكتاب المقدس.

تلك البقاع بالنسبة إليه تعني الأرض التي يمكن له أن يرى فيها الإسلام يمشي على قدمين يتمثلُ العباد بأخلاقهم.

لأجل ذلك أرسل ولده الوحيد من قبلُ إلى هذه الديار.. وجهزه بكل مدخرات حياته ليأخذ العلم الشرعي والأخلاق الإسلامية من مهبها.. وكان يُثبت نفسه إن جزعت على الابن و المال بقوله ربح البيع موجان.. ربح البيع موجان.

و في تلك اللحظات الفارقة من عمره والتي كان يُزجّ فيها داخل الزنزانة لم يكن قادرا على التصديق، كيف يسجنه أخوه المسلم

دون ذنب يذكر.. غير الإسلام، وهل الإسلام ذنب؟ وكيف
يستطيع بعد ذلك أن يلوم رجل آمنٍ آخر في بلد آخر لا يؤمن
بوجود الله أصلا.

جلس موجان على أرضية تلك الزنانة يبكي من هول الصدمة
يتساءل فقط لما كل تلك القسوة؟ لما كل تلك الغلظة في
التعامل معه ومع زوجته التي لا يعلم أين تم اقتيادها؟ إن لم
يكن الدين رباطا كافٍ بينه وبين رجال الأمن فأين القلوب وأين
الإنسانية؟ وهل قدره أن يفِرّ من المعسكرات ليجد نفسه عند
بابها في زمن آخر ومكان مغاير؟

ذكَر نفسه بيوسف عليه السلام لِهْدْيٍ من روعه.. فحتى الأنبياء
سجنوا وعذبوا، إلا أن نفسه أبت إلا أن تجزع ويشتد ألمها فقد
جال في خاطره أن يوسف سجن في زنانة أخرى وفي زمن آخر
ولكن في المكان ذاته، في مكان ليس يبعد كثيرا عن زنانتها تلك..
في مصر.. فهذه الأرض الطيبة أيضا لها تاريخ مجيد مع
المعسكرات.. وحاضر ومستقبل !!

كان محمود يعرف أن يد الحزب طويلة فقد تم إرغامه من قبل على العودة إلى شينجيانغ، لذلك فرّ من البيت الذي يقطنه قرب الأزهر حين علم أن رجال الأمن يبحثون عنه وعن والديه، حاول إقناعهما بالفرار معه ولكنهما أصرّا على البقاء، فموجان كان يعتقد أنه وزوجته في جوار إخوانهم، ومن جاور إخوانه فهو آمن.

كانت الجارة أم زكي تحرص على تقديم فطور الصباح لجيرانها البخاريين والابتسامة لا تفارق محياها، ورغم أنها لم تكن من الأغنياء إلا أنها كانت تُرسل لعائلة موجان كل صباحا رغيفا وزيتونا وحبّات من البيض المسلوق.

لم تكن تنام تلك الجارة قبل أن تتفقد جيرانها الجدد وتطمئن عليهم، لم يسبق لموجان وأهله أن رأوها قبل قدومهم إلى مصر إلا أنهم أحبوها منذ اليوم الأول الذي كلمتهم فيه بلغة أويغورية فصيحة، ولم يكن أحد يفهم لغتهم غيرها.

تلك المرأة المصرية ذات الأصول الأويغورية.. وكل أولئك الجيران البسطاء الذين لم يسمع منهم موجان غير كلمات الود كانوا

سبب بقائه في بيته لحظة المداهمة، كان يعتقد أن أم زكي هي مصر.. أن أم زكي هي بلاد الإسلام التي حلم بأن يزورها ولو مرة في حياته.

رغم أن محمود ترجاه بأن يفرّ معه إلا أن طيبة المصريين البسطاء غرّته.

سُجن موجان وزوجته دون أن توجه لهما أي تهمة، دون أن يفهما سبب اعتقالهما إلا حين ألحق بهما محمود بعد أيام من البحث عليه، واجتمعت العائلة في زنزانة واحدة.

في ذلك اليوم فقط فهم موجان من كلام ولده أن اعتناق الإسلام قد يكون ذنبا حتى في بلاد الإسلام، كان يجب على محمود أن يخبر والده قبل الهجرة أن الإسلام وأخلاقه مكانهما كتب السير والتاريخ.. وأن كل مسلم يمثل نفسه.. وأن الإسلام بريء من الجميع وبريء من كل ذنب ولو ارتكبه كل مسلم.

شعر موجان بالقهر وهو يحدث نفسه بأنه لو كان يعلم أن هذا الذي سيلقاه من إخوانه ما كان ليفكر في الهجرة من بلده..

ولبقي هناك يعذب حتى الموت، فقد يكون ذلك أهون على قلبه
من تعذيب الأخ لأخيه.

أخذ محمود يربت على كتف والده ليُخفف عنه ما يجد في
نفسه وهو يفكر في كلام البابا سيميون.

لقد كان البابا محقا حين منعه من الخروج.. بل أرغمه على
البقاء في الكنيسة التي كان يختبئ فيها حتى تهدئ الأمور وحتى
يتوقف رجال الأمن عن البحث عنه.

قال له البابا

-لا بد أنهم سيرحلون والدك وأمك وأنت لا تملك لهما أي شيء
إلا أن تنجو بنفسك.. وسيكونان سعيدين لأجلك وإن نالهما
العذاب الشديد.

كان محمود يعلم أن البابا مخلص في نصحه ولكنه كان يريد
الخروج، فخوفه على والديه كان كبيرا ورغبته في معرفة
أخبارهما كانت أكبر.. وحياته لم تكن لهما ووالديه في السجن.

وربما كان يريد أن يخرج من تلك الكنيسة في تلك اللحظات لأنه لم يعد يحتمل نظرات البابا اتجاهه، فمحمود مسلم مختب عند مسيحي خوفا من إخوانه المسلمين الذين يريدون تسليمه للملحد.. ليقتل بتهمة الإسلام.

لم يكن يشعر بالخوف من الاعتقال.. ربما هي الطريقة الوحيدة التي سيري من خلالها والديه الغربيين عن هذه الديار، لذلك قرر الخروج والبابا منعه بالقوة.

جلس محمود في تلك الزنزانة قرب والديه ينظر إليهما وهو عاجز عن تقديم المساعدة لهما.. هو يعلم أنه سيُسَلَّم مع والديه إلى السلطات في شينجيانغ والموت سيكون أيسر الأمرين بالنسبة إليهم.. فالعذاب في المعسكرات لا يطاق.

تساءل محمود مرارا كيف استطاع رجال الأمن معرفة مكان اختبائه في تلك الكنيسة.. رغم أن البابا منعه من الخروج ومن الاقتراب من نوافذها وأبوابها؟

مرّ يومين وهو يفكر كيف سيخبر والده بأن السلطات المصرية سترحلهم إلى شينجيانغ التي فرّوا منها بدينهم.. واستجاروا لأجل ذلك بإخوانهم.

موجان لم يتحمل بعد الصدمة الأولى، صدمة اعتقاله من قبل رجال الأمن المصري دون ذنب يذكر.. وهو لا يزال يراهم إخوانه.

وجاءت اللحظة التي لا تحمل في طياتها أي رافة.. جاءت عارية تماما من لباس أخوة الدين.. لحظة فارقة في حياة موجان ستجعله قادرا على التفريق بوضوح بين ما تحمله الكتب في طياتها من جمال.. وبين صراحة الواقع القبيح الذي لا تكفيه أي مساحيق لتعيد له شيئا من نضارته.

وجرّ موجان وزوجته وابنتهما مكبلي الأيدي معصوبي العيون.. مع عشرات طلاب العلم الشرعي من الأويغور صوب طائرة جاءت خصيصا لأجل نقلهم إلى وطنهم المتعطش لأجسادهم.

الإنسانية لم تحمهم، الدين لم يحمهم أيضا وشيخ الأزهر لم يستطع أن يفعل لأجلهم شيئا.. ولا كل أولئك المصريين البسطاء رغم طيبتهم.

ومن بإمكانه الوقوف في وجه المسؤول العربي.. وفي وجه الحزب، فالأول باع والثاني اشترى والسلعة وإن زُهد فيها فهي غالية.

رُجِّل جميع الأويغور باستثناء من فرّوا وباستثناء أم زكي فقد بقيت في بيتها معززة مكرمة، ربما لأنها زوجة أحد شيوخ الأزهر لدى تم معاملتها بشكل مغاير، وهي الوحيدة التي كانت تتردد على شينجيانغ مرتين كل سنة دون أن تُعتقل أو تستجوب بخلاف جميع الأويغور.

ما عاد موجان قادرا على التحمل أكثر ليس لأنه يُقدم قربانا للحزب ليقتله.. ولكنه يتألم لأنه لن يستطيع أن يقف منتصب القامة شامخ الأنف أمام جلاديه فيأخونه هم الذين تخلو عنه.

المشهد التاسع والعشرون

ليس كل من دخل البيت العتيق آمن.

لم يكن صيد اليوم وفيرا بالنسبة لتامر ولصديقه حمزة رغم قدومهما باكرا إلى البحر.. إلا أن ذلك لم يمنعهما من قضاء أوقات ممتعة فصيد سمكة واحدة قد يكون كاف لصياد هاوٍ.. ولحظة واحدة ترتجف فيها السنارة في يد الصياد إيدانا بوجود سمكة قد التقت الطعم تُنسي حامل السنارة عناء يوم بأكمله.

أصبح الصيد هواية تامر الوحيدة بعد أن ترك الترحال.. وترك سهرات الرقص والغناء أيضا عقب عودته من شينجيانغ، وأصبح حمزة يرى صديقه المفضل مملا إلى حد بعيد ولكن كان لابد عليه أن يبقى بجانه في أزمتة تلك.. خصوصا وأن تامر تحسن واستعاد ابتسامته وشيئا من مرحه.

قُرب ميناء جدة وليس ببعيد عن مكان رسوّ سفن شحن البضائع يلقي حمزة بالطعم مجددا، وربما هي المحاولة الأخيرة قبل المغادرة فشمس الظهيرة قد استقرت في كبد السماء.

في حين استلقى تامر على إحدى الصخور لا يريد أن يتعب نفسه بالصيد في يوم ليس يومه، وأغمض عينيه ليرتاح من عناء اليوم الطويل.. فالمكان كان هادئا وأمواج البحر قبل أن تنكسر على الصخور تكسر ضجيج صافرات السفن.

ارتجفت الصنارة في يد حمزة فصرخ عاليا:

- تامر سمكة جديدة.

إلا أن تامر لم يهتم ولم يَرُد فقد كانت أذناه ترصد قرع نعل عجولٍ وخطوات سريعة تقترب.

اقترب الصوت أكثر ليستوي تامر جالسا ويلتفت إلى الخلف.. ليجد فتاة تجري قرب ذلك الميناء وتجرّ صبيا معها، كان الفزع بادٍ عليها وكأن أحدا ما كان يطاردها.. فقد كانت تلتفت بين الحين والآخر للخلف لتواصل الركض بعدها.

اقتربت أكثر من تامر ولم يعد يفصلها عنه غير أمتار قليلة، نظر إليها فبدا له أنه يعرفها وملامح وجهها وإن لم تكن خليجية إلا أنها لم تكن غريبة بالنسبة إليه.

ابتعدت قليلا عنه وعيناه تتبع خطواتها العجولة وحركة قدمها الممشوق، وصوت داخلي يحدثه بأنه يعرف ركضها.. بل يشعر قلبه بنبض قلبها.. ويحس بضيق في صدره مع تسارع أنفاسها.. كأنها جزء منه أو جزء من ذاكرته الضائعة.

حاول أن يتذكر شيئا عنها ولكن دون جدوى ودون أن يزيح ناظريه عنها أيضا إلى أن اختفت يمينا خلف مستودعات للبضائع قرب الميناء.

أمسك تامر رأسه بكلتا يديه وانكبَّ على نفسه كمن يحيي نفسه من الضرب، ترك حمزة سنارته وأقبل مسرعا ليطمئن عليه، وماهي إلا برهة فقط ليظهر رجال من الشرطة يتعقبون أثر تلك الفتاة، توقف أحدهم ليسأل عنها.. ليبادر تامر بالإجابة ويخبره أنها اتجهت شمالا.

- تامر هل أنت بخير؟

يقولها حمزة ليسأله عن حاله إلا أن تامر لم يجبه، ليسأله مجددا عن سبب تعمدته تضليل رجال الشرطة إلا أن تامر ظل ساكتا.. باحثا في ذاكرته عن جواب لسؤال حمزة فهو أيضا لا

يدرې لما فعل ذلك، ولا يدرې سبب اضطراب نفسه وتسارع نبضات قلبه عند رأيّتها، أغمض عينيه يفتش داخله عنها كأنه يقلب أغراض غرفة قديمة بحثا عن شيء ثمين.

ودون سابق إنذار قفز تامر واستوى واقفا وأخذ يركض خلفها يتقضى أثرها.. يطاردها كما طاردها أول مرة في توربان وأشدّ إصرارا هذه المرة، فسبب لحاقه اليوم بها أكبر من مجرد غريزة.. فهي صندوق ذاكرته الأسود وشيء من شرف أخته الأبيض.

لقد ابتعدت بما فيه الكفاية رغم أنها تجرّ صبيا بيمينها تارة وتحمله تارة أخرى، يبدو أنها أكثر اعتيادا على الركض من تامر، هو يراها ولكن كيف سيلحقها؟ كيف سيوقفها؟ وهي تقترب من طريق سيار إن تجاوزته فستصل لمنطقة عمرانية مكتظة بالسكان.. لو دخلتها قد لا يعثر عليها بعدها أبدا.

قال لها ريان السفينة التي قضت فيها ثلاثة أسابيع.. بعد أن قام بإنزالها:

- عليك الآن بالركض إن كنت تريد النجاة.

لم يكن ربان السفينة يريد أن يتحمل مسؤوليتها أكثر، يكفي أنه تستر عليها وعلى الطفل الذي يرافقها طوال تلك الرحلة، راودته نفسه مرارا بأن يتخلص منها ومن ذلك الطفل مع كل مرة كانت ترسو فيها باخرته في أي ميناء لتخوّفه من العقاب الذي قد يطاله.. لتهريبها وتهريب صبي صغير بعيدا عن والديه.

اقترب تامر أكثر منها وما عاد يفصلهما غير ذلك الطريق الذي تجاوزته.. وهي تركض بكل ما أوتيت من قوة باحثة عن حرّيتها.. وإن نال التعب منها.. وجسدها الهزيل لم يعد يحتمل أكثر بعد رحلة طويلة قضتها في مخبئ ضيق شحيح الطعام.

أمسك حمزة يد تامر في اللحظة التي كان يدفع بجسده نحو ذلك الطريق السيار ليلحق تلك الفتاة دون أن ينتبه لحركة المركبات السريعة، حاول تامر مرارا أن يفلت يده ليوصل الركض إلا أنه عجز عن التخلص من قبضة صديقه الحريص على حياته.

ابتعدت الفتاة أكثر وشعر تامر أنه أضاعها وتحركت الذكريات داخله ونادى بأعلى صوته.

- جيفنك.. جيفنيبييك.

مكاملة مقتضبة أجرتها أم تامر مع طبيب العائلة تطلب منه القدوم للبيت فوراً.. فتامر عاد من الصيد يشكو من صداع شديد، ورغم ذلك كانت السعادة بادية على وجهه وهو يعرفها بجيفنك، قال لها أنه تعرف عليها في شينجيانغ وطلب منها أن تسمح له باستقبالها.

رغم أن طلب ولدها بدا غريباً إلا أنها لم تمنع.. فقد استبشرت خيراً حين سمعته يتحدث عن ذلك الإقليم الذي عاد منه جسداً دون روح.. فاقداً لجزء من ذاكرته.

في صباح اليوم التالي سألت أمه أكثر من مرة عن أي شيء آخر يتعلق بتلك الفتاة.. إلا أنه لم يستطع تذكر شيء آخر غير أنها مسلمة وحياتها في خطر.

لم تجد أم تامر بعد طول تفكير غير أن تسأل جيفنك عن علاقتها بولدها تامر.. لتتفاجأ بردها، فهي لم تكن تعرف عنه غير أنه سائح سعودي اعتقل في توربان من أمام بيتها ذات

صباح في يوم جمعة، وإجاباتها عن سبب قدومها للسعودية وطريقة وصولها إليها كانت أكثر غرابة.. وغير قابلة للتصديق، واللغة كانت حاجزا أمام الأم لتعرف كل التفاصيل.

مرّت أيام عديدة وأم تامر تُقلّب في ذهنها قول جيفنك وقول ولدها أيضا.. وتحاول ربط الأحداث ببعضها علّها تجد جوابا واحد لأكثر من سؤال يجول في خاطرها.

لكنها لم تتوصل إلى نتيجة تذكر غير أن ولدها اعتقل من قبل الشرطة بطريقة عنيفة ليسجن بعدها.. وذلك قد يكون سببا في ما آلت إليه حالته.. إن كانت جيفنك صادقة فيما قالت.

ما عاد للأم شغل منذ دخول جيفنك إلى بيتها غير التفكير والبحث المتواصل عن سرّ هذه الفتاة وطبيعة علاقتها بولدها، لذلك لم تكتفي الأم بالسؤال فقط بل فتّشت أغراض جيفنك بنفسها.. لكنها لم تعثر أي شيء مشبوه أو خطير.. كما أنها لم تجد أي وثائق يمكن أن تهتدي بها لمعرفة شيء جديد عن جيفنك، وكل ذلك جعلها في حيرة من أمرها.

وما جعل حيرة الأم تتحول إلى شكوك عدم اقتناعها بأن الصدفه هي التي جمعت جيفنك بتامر مرة أخرى.

-هل جاءت هذه الفتاة لتكمل عملا بدأت في شينجيانغ؟

تتساءل الأم والشكوك تسري داخلها فولدها لزم الفراش منذ وصول جيفنك.. والطبيب لم يستطع أن يفعل لأجل تامر شيئاً يخفف عنه الصداع الذي يعاني منه.. إلا أنه كان متفائلاً بتحسّن حالته.

جلست الأم على أريكة وسط صالة كبيرة في بهو البيت لارتشاف قهوة الصباح.. وهي تفكر في وصول هذه الفتاة مع صبي مجهول الهوية من شينجيانغ إلى مكة ودون وثائق ثبوتية.. الأمر أكثر من محيّر.

اشدت وساوس الأم وبدأت تفكر في أن جيفنك جاءت لتجهز على ولدها.. لذلك تركت قهوتها جانبا وتوجهت إلى غرفة جيفنك لتواصل استجوابها غير أن غرفتها كانت فارغة، فزعت الأم لذلك وركضت نحو غرفة ولدها لتجد باب غرفته مفتوحا وأيقنت

لحظتها أن مصيبة ما وقعت.. لتدخل تلك الغرفة مسرعة ودون استئذان.

وجدت جيفنك والطفل سطوق واقفين بجانب سرير تامر.. وتفاجأت الأم بأن الفتاة كانت تطمئن على صحة تامر فقط وتشكره على تفضله باستقبالها ليس إلا.. وطريقة دخول الأم جعلت تامر يتفاجأ أكثر.

نظرت إليها جيفنك باستغراب وشعرت الأم حينها بحرج شديد لطريقة دخولها الغريبة ولتصرفها غير المبرر أمام هذه الضيفة.. لتسحب معذرة وتوجهت صوب صالة البيت الكبيرة لتكمل فنجان قهوتها.

بدأت الأم تشعر أن وساوسها مبالغٌ فيها وأنها تكاد تظلم هذه الفتاة وأخذت تراجع رأيها فيها.. لكن لم يُرخي الليل سدوله حتى أمرت الأم بإلقاء تلك الفتاة خارج البيت، وملامح وجهها البريئة التي توحى بطيبتها لم تعد كافية لتصديق الأم قصتها الخيالية، وقصة الصبي الذي معها.

إلا أن الحظ أسعف جيفنك في اللحظة الأخيرة فخشونة حارس البيت معها وهو يطردها جعل صراخها يدوي أرجاء البيت.. ويملاً أذني تامر.. ليخرج حينها من غرفته مسرعا ليلحق بامرأة يشعر بأنه مدين لها بالمساعدة.

أعاد تامر جيفنك إلى غرفتها وجلس مع أمه ليعرف سبب قرارها الفجائي.. وسبب عدم استشارته في أمرها.. لتخبره الأم حينها أن الشرطة تبحث عن فتاة مجرمة مطلوبة لدى سلطات بلدها.. ودخلت المملكة بطريقة غير شرعية.

والأم استقبلت مساء ذلك اليوم ضابط شرطة قال:

-إن المعلومات التي لدينا تفيد بأنها في هذا البيت.

إلا أن الأم لم تجد لحظتها سبيلا آخر غير تكذيب هذه المعلومات والتستر على جيفنك خوفا على سمعة العائلة.

غادر رجل الأمن وودّعه الأم بابتسامة مصطنعة.. وشكوكها أصبحت واقعا قد تكون عواقبه وخيمة لذلك انتظرت حلول الظلام لطرده جيفنك.

كان النقاش بين تامر وأمه في تلك الليلة طويلا.. ومع ذلك لم تستطع الأم إقناعه بأن الفتاة التي تبحث عنها الشرطة هي جيفنك، ولا استطاعت أن تقنعه أيضا بضرورة التخلص منها.. ولكنها استطاعت أن تبث داخله شكوكها.. وجعلت وساوسها تسري داخله.

بقاء جيفنك في ذلك البيت لم يكن ليطول أكثر فالأم لم تعد قادرة على التستر عليها أكثر.. وتوسلات ولدها واعتقادها بأن هذه الفتاة قد تساعد على استرجاع ذاكرته لم يعد كافٍ.. فخطر بقائها أكبر، ووساوس أم تامر وصلت حد تخوفها من قيام جيفنك بأعمال عدائية داخل البيت.

وساوسها تلك لم تكن مبنية على فراغ فالبحت عن جيفنك من قبل رجال الأمن ظل متواصلا.. وصورها علقت في أكثر من موقع بالمدينة.. وذلك يوحي بأنها قامت بجرائم كبيرة في بلدها قد تصل حد الإرهاب.

لأجل كل ذلك كانت أيام جيفنك في أرض الحرم معدودة، فرغبة رجال الأمن في القبض عليها كانت أكبر من رغبة رجال الأمن في شينجيانغ.

والنقاشات اليومية الحادة بين تامر وأمه متواصلة، فالأم لها أكثر من حجة مقنعة لطرد هذه الفتاة.. وتامر لم يكن له من حجة للدفاع عنها غير شعوره الغريب اتجاهها، وكل معلومة تذكرها عنها كلّفته صداعا مضاعفا.. لذلك لم يعد يحاول تذكر أي شيء آخر عنها.. يكفيه أن قلبه يعرفها جيدا.

لم تجد الأم حلا ترضي به تامر أو حجة تقنعه من خلالها بضرورة التخلي عنها، لكنها اهتمت للحيلة وطلبت من صديقه حمزة أن يأتي غدا صباحا لاصطحابه معه للصيد.. وألحت عليه في الطلب.. فتامر لم يغادر البيت منذ أيام ومنذ مجيء جيفنك.

لابد أن تبعد ولدها في الصباح الباكر لكي لا يشهد لحظة اعتقال جيفنك خوفا عليه وعلى حالته النفسية، وتامر فطن لحيلة أمه لذلك لم ينتظر مجيء الصباح بل غادر البيت قبل بزوغ الفجر صوب دولة قطر لتهريب جيفنك والطفل سطوق.

المشهد الثلاثون

اضرب بقوة.. بمباركة من إخوة المضروب.

وصل موجان إلى وطنه مكرها، لم يتوقع أنه سيأتي يوم يكره فيه العودة إلى شينجيانغ.. وإلى مراتع صباه.

وُضع على مركبة مدرعة مع زوجته وولده.. وأخذ رجال الشرطة يطوفون بهم جميع أرجاء توربان وكل مظاهر الشماتة بادية على وجوههم.. فإخوانهم هم الذين سلّموهم.

وقف المتفرجون والمتطفلون على حواف الطرقات ينظرون لوجوه الإرهابيين الذين استطاعت الدولة أن تأتي بهم من وراء البحار.

البعض يسب والبعض الآخر يستهزئ.. وآخرون جيء بهم من أكثر من موقع للرقص.. ليدعوا على موجان وأهله بالويل.. ليُثبتوا بذلك مدى ولائهم للحزب وبراءتهم من الإرهابيين.

بينما كان محمود ووالديه مطأطي الرأس.. فلا أحد منهم كانت له القدرة على رفع رأسه وإن أزيح عن عيني كل واحد منهم ذلك الرباط الذي غطى العيون طوال الطريق، من مصر إلى توربان.

نُزع اللثام عن وجوههم في تلك اللحظات ليروا مدى احتقار الناس لهم.. ولمْهزموا من داخلهم، فالجلاد تستفزه القلوب الصلبة التي لا تستسلم حتى أثناء موتها.

لذلك بقي موجان صامدا ليغيظهم.. وإن حز في نفسه أن يجد على بعض جدران الحي الذي كان يسكنه صورا له ولأهله مكتوب عليها، إرهابيون تم إعادتهم لينالوا جزاءهم.

يلتفت محمود إلى والده ليسأله عن شيء لا زال يحيرّه ولا يريد أن يموت دون أن يعرفه.. ليجد والده في أسوء حالات ضعفه، فأخذ يواسيه وهو شريكه في الهم.. ويرفع من معنوياته ليثبتته ويثبت معه.

- اصبر يا والدي إنك على الحق.. ولا يغرنك كثرة السالكين لدروب الباطل.

شرد ذهن موجان وهو يفكر في قول ولده ولم يعد حينها يسمع
صيحات الاستهجان والسب والقذف.. من كل الذين أحاطوا
بهم.. فقد وقعت تلك الكلمات على قلبه كالماء البارد على الجمر
المتأجج.. وقد كان قبل سماعه لتلك الكلمات يفكر في فعل شيء
كان سيهدم عمله كله.

- أبي.. أبي.

يعيد ذلك النداء موجان إلى الواقع ويذهب شروذ ذهنه
فمحمود مصممٌ على معرفة شيء ما من والده.

يلتفت الأب ليسمع محمود وهو يقول:

- أبي.. هل أخبرت أي أحد عن مكان اختبائي في تلك الكنيسة
بمصر؟

تعجب موجان من سؤال ولده ذلك ولم يجبه.. فلا فائدة من
الجواب عن سؤال كهذا والموت أقرب إليهما من أي شيء، لكن
محمود كان مصرًا على معرفة الجواب على سؤاله ذاك.

شعر موجان أن ولده يحمله مسؤولية ما من خلال إلحاحه على معرفة جوابٍ لسؤاله، وعاد الشرود مجددا وسرح ذهن موجان وهو يبحث عن شيء يصلح كإجابة لسؤال ولده المُستفز.

موجان نفسه لم يفهم كيف دخلت الشرطة المصرية يومها مباشرة إلى بيت الجيران لاعتقاله مع زوجته بدل البحث عنهما في البيت الذي يسكنانه.. فباب بيتهما لم يُدك إلا بعد اعتقالهما عند أم زكي.

لكنه يومها لم ينتبه لذلك ولم يهتم.. فأم زكي موضع ثقة، ولكن سؤال ولده أثار في نفسه الشكوك ليجيب بعد كثير من التفكير والتردد بقوله:

- لم أخبر يومها أحدا بأنك ذاهب للاختباء في تلك الكنيسة.. إلا أننا لم نكن نخفي عن أم زكي أي شيء فقد كانت واحدة منا.

تغيّر وجه محمود لحظتها تماما فهو يعرف زوج أم زكي منذ أن كان طالبا في الأزهر، ولكنه لم يكن يعرف سبب الكثير من مواقف ذلك الشيخ والتي كانت في نظر محمود خاطئة وأخرى معادية لمسلمي الأويغور، والآن اتضحت الصورة القبيحة تماما.

إنه الشيخ نفسه الذي أفتى بجواز شرب الخمر الذي يحتوي على كمية قليلة من الكحول.. والذي تستورده مصر من بلده.

وهو نفسه الذي دعا للحزب بالتوفيق في محاربة الإرهاب في شينجيانغ يوم زار سفير بلده لدى مصر جامع الأزهر.

وهو نفسه الذي وافقت فتواه موقف السلطات المصرية الموقعة على رسالة تدعم فيها سياسة الصين ضد مسلمي الأويغور العزل.. سياسة اضرب بقوة (الكثير من الدول العربية والإسلامية وقعت على هذه الوثيقة).

وجاءت تلك الرسالة كرد عن رسالة سابقة وجهتها القوى الكبرى للأمم المتحدة.. تعبر فيها عن قلقها للاضطهادات الممنهجة ضد مسلمي الأويغور.

بدأ محمود يشعر برغبة ما في تقيئ الكثير من الأفكار التي أخذها عن ذلك الشيخ.. وقد شعر أن سند الشيخ في تلك الأفكار جسد زوجته.

والتي قال عنها من قبل إنها لم ترفض له طلبا ولم تعص له أمرا ولم تغضبه يوما باستثناء سفرها منفردة مرتين إلى وطنها كل

سنة، وحتى ذلك السفر من دون محرم أصبح بالنسبة للشيخ جائزا، فالدلع.. يفعل في العقيدة ما لا تفعل البدع.

وأسماء الأعماق قد تكون على علم بدلع أم زكي أكثر من زوجها، فهي التي اختارت تلك الحسنة زوجة لذلك الشيخ قبل عشرين سنة.. ولم يكن الشيخ هو الذي اختارها.. بل فَتَنَتْهُ عنوة.

يُرحل جميع الأويغور إلى شينجيانغ غير الذين يعملون لصالح الأسماء.. والعالم كله تحت المراقبة.. والهدف هو الوصول إلى المعلومة ونقل التكنولوجيا.. والقوة الناعمة أفضل طريقة.. والحسنات وسيلة.

يسأل موجان محمود وقد لاحظ تغيّر وجهه:

- هل أنت بخير.

أخذ محمود نفسا عميقا وتنهد بقوة وكأنه يطلب من نفسه أن تسكن وتستريح، فلا شيء في هذه الحياة يستحق أن تُتعب نفسك لأجله إن كنت تشعر أنك على الصراط المستقيم، قال بعدها مطمئنا والده:

- كل شيء على ما يرام.. لازلت أشعر أنني منتصر وإن كنت أموت.

في تلك اللحظة بالذات تكلمت الزوجة بصوت خافت وبلغة أويغورية استفزت بها الجنود.. ليضرها أحدهم على رأسها بمؤخرة سلاحه.

لم تقل شيئاً يستحق أن تضرب لأجله فقد كانت تستأذن زوجها في أن تنتحر ليس إلا.. وسألته بلغة لا يفهمها الجنود لكي لا تحرم من لذة الموت الرحيم، فالنهاية مع الجلادين قد تكون طويلة.

هزت تلك الكلمات الرقيقة موجان بقوة وشعر معها بانهيارتام.. فلم يسبق له وأن شعر بالألم أشد من ذلك الألم.. فسؤالها ذاك كان أشد عليه من ضرب الجندي لها مع عجزه، فمؤخرة البندقية أصابت رأسها والسؤال ضرب أعماقه ولم يعد هناك شيء واحد ترسوا عليه النفس المضطربة في لحظاتها الأخيرة.

سكت موجان برهة فهو لم يكن يملك لحظتها أي إجابة لسؤالها والذي كان أشد عجباً من سؤال محمود.. بل أغرب من الخيال.

كيف تسأله أن تقتل نفسها؟ هل تريد بذلك أن تحرم الجلادين متعة قتلها؟ أم تريد أن تحرم نفسها الشهادة وامتع الجنان عند الواحد الديان؟

لم يجبها برفق بل زجرها.. فالحجنة لا ثمن لها، ثم تذكر أنه كان يفكر قبل قليل في ارتكاب الجرم نفسه الذي استأذنت زوجته لتفعله.

تذكر موجان جحيم المعسكرات واشتد خوفه من جحيم الدنيا أكثر من خوفه من جحيم الآخرة.. وشعر أن زوجته محقة إلى حد ما، حينها دفع بجسده ليسقط من تلك المركبة وهو يشير لزوجته بأن تلحقه.

صرخ محمود بأعلى صوته وجسد والده يهوي.. فأمسك الجنود حينها موجان وأخذوا يسبحونه ليعلوا ظهر المركبة.. وارتفع الصراخ من كل جانب ومن كل أولئك المتفرجين.. والتفت السائق لينظر ما الذي يحدث خلفه تاركا المقود يدور لوحده لتقبل المركبة بقوة على جسد موجان وزوجته وولده لتزفهم شهداء.

المشهد الواحد والثلاثون

في كل زمان إخوة يوسف.. وللحلم بقية.

حطت طائرة قادمة من المملكة العربية السعودية في مطار أورومتشي عاصمة إقليم شينجيانغ في مدرج خاص ونزل منها عشرات البخاريين أو الأويغوريين.

لن تكون هذه الطائرة هي الأخيرة فجهاز الأسماك يقوم بحملة واسعة لإرجاع عدد كبير من الأويغوريين من مختلف دول العالم ليستعيد ثقة الحزب بعد عدد من الأخطاء والبهفوات.

نزل المرحلون من الحرم.. المرحلون من بلد الإسلام الأول نزلوا مكبلي الأيدي معصوبي العيون وحليقي الرؤوس أيضا.

تم اقتيادهم عبر ممرات خاصة داخل المطار وصولا إلى عربات مدرعة أعدت خصيصا للطواف بهم في جميع أنحاء شينجيانغ.. احتفاء بإلقاء القبض عليهم.

علي أدينان تم إرجاعه كذلك وأخوات حبيب الله الثلاث أيضا..
وكل الذين تم توجيههم للعراق بإيعاز من الأسماك.. أو لمناطق
يحكمها التنظيم الإرهابي داعش ليكونوا لعبة استخباراتية، تم
إرجاعهم ليرى العالم في اللحظة المناسبة مدى فظاعة
الأويفوريين الإرهابيين ومدى صدق الحزب.

ملأت صور الإرهابيين الأبرياء صفحات الجرائد وتصدرت عناوين
الأخبار في أكبر المحطات التلفزيونية العالمية.. وضجت بهذه الأنباء
شبكات التواصل.

لم تكن رحمة قادرة على التصديق بأن المسلمين ليسوا إخوة
كما كان يقول والدها دائما، وإلا كيف يمكن للمسلم أن يسلم
أخاه المسلم؟ لم تفهم رحمة ذلك ولكنها للمرة الأولى استطاعت
أن تفهم وتعيش قول النبي صلى الله عليه وسلم "... إلى من
تكلمي إلى عدو يتجهمني أو إلى قريب ملكته أمري..."

تساءلت مرارا وطوال الطريق كيف يتم طردها مع كل أولئك
الأويفوريين اللاجئين الذين اختاروا الحرم المكي ملاذا.

لم تجد رحمة لذلك جوابا ولا تفسيراً ولا استطاعت أن تواصل تساؤلاتها تلك، فكيانها مضطرب لإقبالها على الجحيم.

سمعت من قبل الكثير عن معسكرات إعادة التأهيل ولكن ليس الخبر كالعيان، كانت خائفة من تلك المعسكرات وخوفها من دخولها إليها منفردة أشد.

كيف ستدخلها وحدها دون قريب يدافع عنها؟ دون أفراد عائلتها والذين انقطعت أخبارهم عند ميناء قوادر، من سيسأل عنها إن طال عذابها وتوالت سنوات الاعتقال؟ ومن سيفكر في الدفاع عنها وهي لم تترك خلفها أحدا.. ولا أحد يعلم باعتقالها غير الله وذلك السائح السعودي.

لابد عليها أن تواجه الجميع بمفردها وتواجه العذاب في تلك المعسكرات بمفردها أيضا.

تمنت لو بقيت في بيت لي إلى الأبد.. فالبقاء في بيت ملحدٍ قادر على الدفاع عنها خيرٌ من البقاء في بيت الإسلام الذي لا يصون فيه أهله شرف بناتهم.

يوم شاق مَرَّ على رحمة وهي على ظهر تلك المركبة المدرعة لكنها لم تكن تتأفف ولم تظهر بعد ألمها، ليس لقوتها ولكن لأنها تعلم أن ما سيأتي هو الأسوأ، وأنه سيتم تحويلها عند نهاية ذلك اليوم إلى تلك المعسكرات الرهيبة.

بالكاد غربت شمس ذلك اليوم حتى وجدت رحمة نفسها داخل تلك المعسكرات كما توقعت تماما، ولكن لم يكن يخطر ببالها أنها ستجد ذلك السجين في تلك المعسكرات.

ولم تستطع أن تعرف شعورها في تلك اللحظة التي أدخلت إلى زنزانة بها سجين واحد هو الضابط لي، هل تفرح لرؤيته أم تحزن؟

هل تفرح لأنها تحبه ويسعدها رؤيته أو على الأقل لم تعد وحدها في ذلك المعتقل؟ أم عليها أن تحزن لأنه لا يمكنه أن يفعل لأجلها شيئا فآثار التعذيب بادية عليه؟ وبالكاد استطاعت أن تميّز ملامح وجهه، وربما يجب عليها أن تحزن أيضا لأنها سبب كل ذلك العذاب الذي حل به؟

تم اقتيادها لتقترب منه أكثر، أغمض لي عينيه حين وقفت أمامه، هو لا يريد أن يراها في لحظة الضعف تلك، في اللحظة التي لا يمكن أن يفعل لأجلها شيئاً.

أغمض عينيه لا يريد أن يرى ما سيفعل بها الجلادون الذين وعدوه بالعذاب الذي يتمنى معه أن يموت دون أن يتحقق له ذلك.

لي يعرف جيداً ما الذي يدور في أذهان معذبيه وجيفنك لم تكن تعرف شيئاً غير أنها ستعتقل.

تعجبت جيفنك من فعل لي ومن إعراضه عنها حين رآها تقف أمامه، ولم تعرف بعد سر إحضارها ل ترى لي ولتكون قريبة منه، ما الذي يريده الجلادون من ذلك؟

سألته بصوت حاني وباسمه الذي عرفته به وليس محمد رحمان:

- لي ما الذي حدث لك؟

لكنه لم يجبها لكي لا يفضح حبه لها أكثر أمام الجلادين فتكون وسيلتهم في تعذيبه طويلا.

سألته مجددا والعبرات تخنقها:

- لي هل أسلمت؟

لكنه لم يجبها أيضا.. لتضعف الفتاة العنيدة لحظتها وتجهش بالبكاء لأكثر من سبب، بكت لحالها، لحال أهلها، لحال جميع الأويغور ولحال رجل أحبها بطريقته وهي ترى أنه ما عاد مهتما لأمرها في لحظة العذاب تلك.

ولم تكن تعلم إن كان يحملها مسؤولية ما عن كل الذي وقع له، لتعتذر لحظتها عن ذنب لم ترتكبه وتطلب منه الصفح وهو الذي حوّل حياتها إلى جحيم منذ دخوله إلى بيتها، اعتذرت لتريح ضميرها وإن كان هو المذنب، أو ربما اعتذرت لأن الذي يتعذب أمامها هو ابن عمها وحبیبها أيضا.

حينها فتح لي عينيه وقد اغرورقت بالدمع ليقول تاركا عزة نفسه جانبا وقد أيقن أنها النهاية.

- جيفنك أنا أحبك.

ابتسامة مقتضبة منها وأنصاف نظرة قبل أن تغض طرفها ودون أن ترد عليه بأي كلمة.. فالموقف كان عصيبا وهي لم تعترف بعد لنفسها بأنها أحبته، ولي لم يكرر اعترافه بحبه لها فالحظات الأخيرة ثمينة وهو يريد أن يسألها عن شيء يدخله الإسلام قبل أن يخرج من الدنيا.. فقد تم تكبيرها إلى جانبه وأعطيت الإشارة.

تركا أحاديث الحب جانبا وتحدثت العيون المُغرُورِقات في لحظة واحدة أكثر مما يمكن لأي عاشقين أن يقولوا.

ليردد لي خلف جيفنك الشهادة.. قبل أن يصرخ عاليا عند تطاير دمها وهي لا تزال تحافظ على ابتسامتها.

ربما أسعدها الموت بإقباله السريع نحوها وجننها عذاب المعسكرات، وربما كانت بتلك الابتسامة تغيض جلاذيتها.. أو لتظهر سعادتها بإسلام حبيبها وابن عمها.. والذي لم يطل الوقت لتطال تلك الرصاصات جسده ويختلط حينها دمه بدمها ويشاركها الابتسامة ذاتها.

هل كانت جيفتك تبتسم لأنها رأت منزلا فسيحا سيجمعها
بحبيها؟ وهل كان لي يبتسم لأنه رأى ملائكة بيض الوجوه نزلت
لتزفه للجنان؟

لا لم يكن لي يبتسم بل كان يضحك ملء فيه والرصاصات
تخترق جسده الواحدة تلو الأخرى، وأيقن الجلادون حينها بأنه
قد جن من شدة العذاب.. ولكنه كان يضحك لأنها ساعة
الخلاص من العذاب، ساعة لا عذاب بعدها للمعذبين في الأرض
لأجل الحق ولأجل أوطانهم ولأجل دينهم ولأجل الرب الكريم الذي
أعد الكثير لمن تألم لأجله أكثر.

لم تكن رحمة وابن عمها محمد رحمان مهتمين في لحظة الارتقاء
تلك بطريقة قتلها ولا بكل لحظات العذاب التي عاشها.. ولم
تكن الأسماك مهتمة في اللحظة ذاتها بجهة إطلاق النار على
صدريهما.. اليمنى منها أو اليسرى.. فشغلهم الوحيد لحظتها هو
الانتقام وللإقتصاد يوم آخر!!

وتامر لم يملك القدرة على رفع رأسه وهو ساجد في صحن الكعبة والصداع يكاد يقسم رأسه نصفين.. والآلام تسري في كامل جسده وتشل حركته.

وكيف يرفع رأسه وهو لا يجد لنفسه عذرا يقوله لمولاه عن خذلانه لأخته جيفنك في بلده وقبله في بلدها.. وهو يتذكر لحظاته الأخيرة معها قبل أن تعتقل عند حدود دولة قطر.

لحظات اعتقالها تلك من قبل الأمن السعودي وهي تصرخ طالبة من تامر إنقاذها.. وهو عاجز عن فعل أي شيء لها جعلته يتذكر لحظات اعتقاله في شينجيانغ، وصراخه المتواصل في معسكراتها حين لم يجد مُنقذاً.

لأجل ذلك حاول بشتى الطرق تخليصها من بين أيديهم لكي لا يتم ترحيلها لتسجن في تلك المعسكرات الرهيبة.. ولكن محاولاته باءت بالفشل.

نفوذ أسرته لم يكن كاف لحمايتها، ماله لم ينفعه، أخوة الدين عجزت أيضاً، وحرمة الكعبة لم تغني من قبل عن ابن الزبير.. فكيف تغني عن رحمة شيئاً.

عزاء تامر الوحيد أنه استطاع تنفيذ طلب جيفنك الأخير بإيصال الطفل الصغير إلى مكان آمن لا يصله الحزب، مكانا ينشأ فيه على تعاليم دين والديه وثقافة أهله.. ويكبر ليدافع عن أرضه.

لم يستطع تامر أن يفعل لأجل جيفنك ولأجل ضميره المنهك شيئا آخر غير تهريبه للطفل سطوق لدولة قطر.

يحاول تامر مرارا أن يقوم من سجوده ذاك إلا أن جراح قلبه متعددة.. والجرعات الكبيرة التي حقن بها لن تسمح لمن تذكر شيئا عن شينجيانغ بأن يبقى حيا.. ليستسلم جسد تامر حينها للموت بعد صراع داخلي رهيب.

وعد رجل قطري بأن يكون الملاذ الآمن للصبي وأن يكون اللوصية وفيّ وأن ينشأ عنده سطوق كبعض ولده.

لذلك التحق الصبي سطوق سريعا بمدرسة قطرية ليتعلم أحرف العربية وآيات من القرآن وشيئا عن تاريخ بلده المجيد، وكيف يدافع عنه، وكيف يكون المسلم أخا لكل مسلم كما تقول الكتب لا كما يقول الواقع.

ورفع سطوق قلمه ليتعلم كيف يرسم أحرف اسمه المنغولي
بخط عربي على أرض قطرية.. سطوق بغراخان خاقان.

انتهى

والله المستعان.

الفهرس

الصفحة	المشهد
6	المشهد الأول: صدمة الخطوات الأولى داخل المستنقع
21	المشهد الثاني: الرقص في توربان أكبر من مجرد حكاية
29	المشهد الثالث: عندما يصطدم الأمن القومي مع الفن يصبح الأخير جريمة
39	المشهد الرابع: حتى "السلام عليكم" في مكان ما قد تحمل نقيضها
45	المشهد الخامس: الحزام هنا ينقل الوباء والدواء
57	المشهد السادس: الانسان يحترف تزييف الحقائق، لذلك قد يكون الجمال والتمدن مشروعا ممنهجا للاضطهاد
68	المشهد السابع: عندما يتسخ الفكر تزعجه الطهارة
81	المشهد الثامن: معسكرات إعادة التثقيف.. جريمة ضد الإنسانية
91	المشهد التاسع: في شينجيانغ قد يكون الضيف جاسوسا وقد يستقبلك هو في بيتك
103	المشهد العاشر: قد لا يكفي لنقض الذات كرسي ومرأة وسلاسل وسوط
113	المشهد الحادي عشر: الحب لا يغير المفاهيم فقط بل حتى المعتقدات
124	المشهد الثاني عشر: عندما يتطرف الاقتصاد يصبح الوطن

	أولى بأجساد المواطنين من أنفسهم
136	المشهد الثالث عشر: الخط العربي يفتن فتنة الحسناء
147	المشهد الرابع عشر: كوابيس أورومتشي ليست خرافة
158	المشهد الخامس عشر: الخطة البديلة عن الزواج عنوة
169	المشهد السادس عشر: كاشغر.. التخلص من الثقل الحضاري لصالح الأمن القومي
178	المشهد السابع عشر: أسماك الأعماق تسبح بين الابن ووالديه
188	المشهد الثامن عشر: كل حزام يخفي عورة
198	المشهد التاسع عشر: ليلة الحلم والإثم مع الرجل الخطأ
208	المشهد العشرون: الجراح لا تلتئم بمرور السنين في حضور الذكريات
216	المشهد الواحد والعشرون: قد تجد نفسك بالبحث عن الآخر
224	المشهد الثاني والعشرون: الثقافة الأويغورية مستهدفة أكثر من أجساد الأويغوريين
231	المشهد الثالث والعشرون: مشكلة مسلمي الأويغور في إيمانهم بوجود وطنٍ بديل اسمه تركستان الشرقية
238	المشهد الرابع والعشرون: من كان يضرب بقوة اكتشف أنه ضحية
247	المشهد الخامس والعشرون: لا منطق يخضع له الحب
258	المشهد السادس والعشرين: حلم الحرية وحده يستحق

	المجازفة
272	المشهد السابع والعشرون: جاسوس خلف كل حبة رمل لإعادة الوليد إلى بطن أمه
285	المشهد الثامن والعشرون: سجون ليوسف في كل زمان
295	المشهد التاسع والعشرون: ليس كل من دخل البيت العتيق آمن
307	المشهد الثلاثون: اضرب بقوة.. بمباركة من إخوة المضروب
315	المشهد الواحد والثلاثون: في كل زمان إخوة يوسف.. وللحلم بقية

وصل الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين.

أنهيت كتابة مئات الصفحات من روايتي هذه وأجدني هنا مرتبكا في كتابة كلمات تعبر عما في الصفحات من كلمات، هل لأن كل الكلمات تتصارع داخلي باحثة لها عن مكان ما في هذه الصفحة بالذات؟ أم أن ما يُعشش داخلي من آلام أمتي أكبر من أن تستوعبه مساحة بيضاء.. لورقة واحدة، ماذا سأكتب هنا إذن؟ وأي لحظة سأقتطعها من روايتي لتكون على ظهر الكتاب وأنا أعلم أن أرافة لحظة في هذه الرواية لا تحمل في طياتها أية رافة.. فقد جاءت كل لحظاتها عارية تماما من كل لباس مصطنع أو مزئف.. وحتى لباس أخوة الدين قد لا يصلح ليكون خرقه، إذن سأكتب فقط لأرتاح شعوري بواجب الزكاة من فيض كلمات تملأ صدري.. وأكتب لأرتاح من أزيها المتواصل داخلي وهي تُحدثني بواجب النصرة.



د/ بن عامر زين الدين

وقلمي الذي عودني بأن يكون ملاذي بعد الله حين تكبر المأساة داخلي وجدته عاجزا أيضا عن الرقص وأنا ملي تراوده في كل الصفحات، ولكن كيف له أن يرقص؟ لا رقص في حضرة الفجيعة إلا عنوة، لذلك سار القلم هنا وعلى كل الأوراق والصفحات على مهل يتتبع خيوط الألم لينسج ثوبا شفافا يستر ويفضح.. ويسمح بعرض الجراحات الخفية للفرجة، فبعض الحديث عن الحزام.. وجله عن ما تحت الحزام.



إشكالية زناوة السيولة
عبد المصطفى الزين الدين
www.daralmahar.com



الناشر : أشرف كرثلي
مدير الأدب : أوم وائل
للواصل : 036483665
0796670044

E mail: daralmahar@outlook.fr

المدبر للمطبعة والنشر : عزم عزم
Facebook: دارالمأهر
Twitter: دارالمأهر

العنوان : شارع الثورة - العلامة - سطيف - الجزائر

ISBN: 978-9969-514-65-0



9 789969 514650